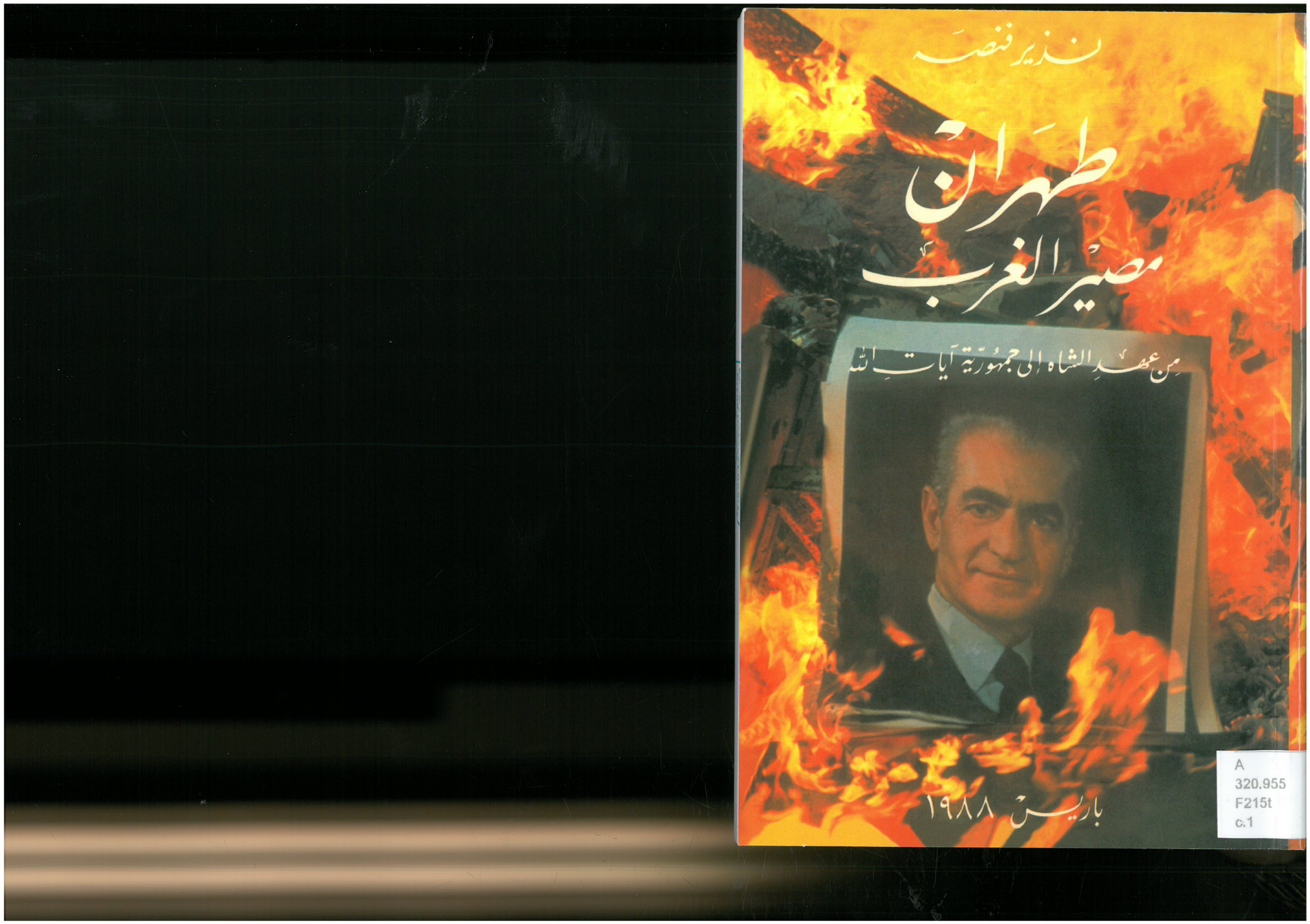

نذير فنصه
طهران
مصير الغرب
من عهد الشاه الى جمهورية آيات الله
باريس ١٩٨٨

نذير فنصة



من عهد الشاه الى جمهورية آيات الله



باريس ١٩٨٨

يا حقّ لم تبقِ لي صاحِبا

علي بن أبي طالب

* * *

عندما هوى عرش الشاه، كانت دول اوروبا وأميركا تتخبط وسط صعوبات كثيرة، حتى ان سقوط الامبراطور محمد رضا بهلوي ضاع في خضمّ الخسائر التي حلّت بالغرب في كل مكان، وكأنه ألِفَها.

اما الرأي العام فلم يرَ في الأمر اكثر من قصة عاهل بين العواهل يسقط، أو صرح تاريخي تطيح به ثورة، كما زلزلة أرضية. ولكن الأحداث التي لها مثل هذه الأهمية قليلة، وقليلة جداً، في عصرنا.

هو حدث أهم من حرب كوريا، ومن حرب فيتنام، وربما أخطر من تسلّم فيديل كاسترو السلطة في كوبا

ففي لعبة الشطرنج المستمرة منذ سنة ١٩٤٥، بين واشنطن وموسكو، تكبّدت الخارجية الاميركية خسارة فادحة، خسارة لم يوقعها بها الاتحاد السوفياتي ـ خصمها الأول ـ انما خسارة سيستفيد منها الاتحاد السوفياتي، على المديين القصير والأوسط، وستعيد خلط الأوراق بالنسبة الى تواجد القوى. لأن التوازن الهزيل القائم بين الكتلتين العظميين في كل مكان، تلقّى ضربة زعزعته كما لو كانت نتيجة اجتياح عسكري ضخم

وفي الواقع، إن لم يكن نصر آية الله الخميني نتيجة لتخطيط سوفياتي مباشر، وإن كانت موسكو ترى بعين الاشمئزاز حلول الجمهورية الاسلامية في



ايران، فانّ الغرب، بخسارته ايران، خسر عنصراً هاماً من عناصر حمايته، والصدع لاقى صدى مباشراً في غير مكان، ابتداء بأفغانستان وانتهاء بمعظم الدول العربية. وإن كانت الشيوعية في نظر الخميني وجهاً آخر من وجوه الشيطان، فايران في وضعها المتفجر، تخدم أماني القياصرة الجدد الذين ما برحوا منذ سنة ١٩١٧، يستخدمون الفوضى والدعاية كوسيلتين لمدهم.

وهل يخفى أنه عوْد الى سنة ١٩١٧؟

فما الدافع الى التغيّرات الكبرى؟

جل ما نلحظه ان الخميني نجح حيث فشل سواه. واستطاع اعطاء هوية لفسيفساء من الشعوب لا جامع بينها سوى الدين. ايمان شديد يشكل المرسى الأخير والحضارة المثلى وحجر الزاوية الذي يرتكز عليه المصير المشترك. انها شرارة العبقرية، والعود الى الينابيع. وازاء الغرب الساحر، الذي أخذ به الشرق منذ مصطفى كمال (اتاتورك) وقف الخميني يقول بضرورة العودة الى الجذور.

وما أروع الجهاد. محاربة الصهيونية، وأوروبا، وأميركا. هذا الجهاد ينشل الفلاح من بؤسه ليقدم له البطولة والتسامي؛ شرع اسلامي. مجلس اسلامي. جمهورية اسلامية. واستنطاق اسلامي ايضاً. فالخميني لا يقدم للبؤساء التائهين عملاً ولا رغداً. بل لا يعدهم بشيء زمني.

لا شك ان الأصولية ستعود وتخمد بعد هذه الهبة. لأنها، من حيث مفهوم جميع الثورات، ستتراجع. فالاقتصاد متداع. والشعب ينزف اثر حرب تطول، يقدم الدم بحماسة ويدفع الثمن غالياً. هناك بعض الانتصارات على الجبهات ولكن النصر المرجو يطول. وتتخلل الحماسة فترات من الركود والجمود. كان الأمل في سقوط البصرة. لكنها صمدت. ووجود رونالد ريغان في البيت الأبيض لا يسهل الأمور كما في عهد كارتر.

لكن الساعة لساعة فصل. فاذا انهار العراق وبقيت اميركا واجمة تسبعها شرارة عيني هذا الشيخ، عندها سيحمل النصر الشيعة الى تزعم العالم، العالم

الاسلامي أولاً، ثم ستفتح لهم أبواب اوروبا.

يومها، ستجد اوروبا نفسها في وجه مصيرها، كما في اول عهدها. وستضطر الى مجابهة الحقيقة وجهاً لوجه، وبعيداً عن كل تستّر أو تعامٍ. وسترغَم على اعتناق الشجاعة. لأن مصيرها لا يرسَم في اجتماعات بروكسيل، بل في شط العرب حيث يحارب العراقيون، ويقاومون بشجاعة وصعوبة جحافل يدفعها التعصب.

***

وعَوْد الى الشاه.

لم يستغرب احد سقوطه في الغرب حيث بات المستحيل ممكناً والعجب مألوفاً.

كان يسعى الشاه الى جعل بلاده نوعاً من يابان آخر وتقارير السفارات الأجنبية تسمّيه شرطي الخليج. وقد قصده، ريتشارد نيكسون ذات مرة ليتعلم عليه نهجاً في الحكم.

لكنه خسر. وما هَم ان يكون محقاً أو مخطئاً طالما خسر؟ خسر وأصبح شبه موبوء. فلم يعد مرغوباً فيه في فرنسا ولا في الولايات المتحدة التي رفضت حتى تزويده بجواز سفر؛ لكن انور السادات استقبله. وهكذا لقّن الرئيس المصري الغرب الفاجر امثولة في الرجولة والشهامة.

إن فشل امبراطور كان يسعى الى تطوير بلاده، ولديه الوسائل الكفيلة بنجاحه، بات معضلة، معضلة سأسعى هنا الى حلها. وأود ان أكون منصفاً وعادلاً، لأن الشاه لم يكن على غرار فاروق، رجل الحفلات والملذات. ولا كان الطاغية الذي يحلو للبعض اليوم ان يرسمه. فكل الذين عرفوه عن كثب يعرفون ان كل ذلك خطأ.

الشاه عاش عيشة عائلية مثلى. كان يطالع كثيراً وثقافته واسعة. وكان

ضليعاً بالفرنسية وملماً بالانكليزية. صحيح ان نهج حياته اتّسم بالرفاهية لكنه لم يكن يحب التشريفات. وكان، وهو وحده، يقود سيارته. ولم يكن بعيداً عن الناس.

طويل القامة، رقيق البنية، فبدا حتى ايام مرضه وفي مناسبة ذا ثقة كبرى بدوره كعاهل. قليل الحديث. نادر المزاح. وقد اعترف الجميع له ابتداءً بأعدائه، بأنه احد كبار زعماء القرن العشرين.

هل كان رجعياً؟

انه بالعكس كان مجدداً. هو صاحب الثورة البيضاء، أو الاصلاح الزراعي الذي وزّع على الفلاحين أراضي الاقطاعيين ورجال الدين. كان كوالده كثير الاعجاب بمصطفى كمال (أتاتورك) فشاء فرنجة بلاد فارس وفرض الحرف اللاتيني مكان الحرف العربي. وشاء ايضاً تزويد ايران بدستور عصري واعتماد الشرع الغربي (قانون نابوليون) وانشأ بيوت العدل لحل الخلافات. وسمح للنساء بالتصويت بأعطائهن حق الاقتراع كما منح العمّال فرصة الاستفادة من الأرباح. واستغل مداخيل النفط المتدفقة على البلاد هبة سماوية فانشأ المدارس والمستشفيات والمؤسسات العامة العصرية. وكرّس اكثر وقته في خدمة بلاده.

لكن هناك عوامل كثيرة تفسّر سقوطه. وفي رأسها المكر الاميركي والتخاذل الغربي عامة، ناهيك بالأخطاء السياسية وأهمها عدم سعيه الى التقارب من جيرانه العرب وكسب ودهم. ولكن، هل يستطيع أي فرد رفع دولة كاملة ـ بسحر ساحر ـ من غياهب القرون الوسطى الى رقي القرن العشرين؟ أتاتورك، هو، استطاع ذلك. ولكن الظروف كانت مؤاتية، ولاسيما ان فكرة قيام دولة تركية معاصرة كانت قد بدأت ترسخ في الأذهان.

اما المسيرة الشاقة التي حاول الشاه فرضها على بلاده فقد فشلت بسبب افتقارها لروابط حقيقية بالطبقات الشعبية. فقرّب اليه مجموعة صغيرة هي نخبة المجتمع ولكنه لم يستطع التقرب من الطبقة الوسطى، ناهيك بأنه ترك الطبقات

الصغرى في نوع من بعد أو حرمان أو عداء.

لعل زمان التحضّر عن طريق الغرب قد ولّى.

هذا الامبراطور المتحفظ كانت تنقصه هالة كبار الثائرين المحدثين. فلم تكن له موهبة عبد الناصر الخطابية وغاب عنه سحر مصطفى كمال. كان بعيداً عن الأوساط الشعبية لا يختلط بسوى ذوي الانساب والأعراق. حتى الحزب الواحد، حزب راستاخية، الذي شاء ان يجعل منه آلة لسياسته اصبح في النهاية مرتعاً لبعض الخاصة الطامعين. والجيش، أقوى جيش في الشرق الأوسط، بعتاده الضخم، وتقنيته العصرية، وامتيازاته العديدة أمسى في إمرة رجال الحاشية.

وفوق كل هذه ان الشاه كان يعيش في عالم حيث السواد الأعظم مفطور على تقاليد بالية، لا تخلو من ظلم، وحيث كلمة ديمقراطية فارغة من كل معنى. وفي واقع أمسى نوعاً من صراع بين المعارضة والقمع.

***

في العام ١٩٥٣، اسقط الجنرال زاهدي الدكتور مصدق. الانقلاب العسكري، كما لا يخفى على احد، كان بتدبير اميركي. ومصدّق يومها في قمة شعبيته وقوته. فلا شيء يقف في وجهه. حتى ان بعضهم ذهب الى القول بتنازل محمد رضا بهلوي عن العرش.

إثر هذه العملية الانقلابية، أيقن الشاه بقدرة واشنطن، التي استعادت له عرشه بعد اثنتين وسبعين ساعة من هروبه الى روما. فسجّل يومها نصراً. كما سجلت واشنطن ايضاً انتصاراً لها على جبهة الحرب الباردة. وباتت ايران تشكل حاجزاً امام الاتحاد السوفياتي، حاجزاً في الطريق الى المياه الساخنة. كل شيء آنذاك على ما يرام، وقد بدا شاه ايران حليف الاميركيين الأول في المنطقة. ولكن التحالف لا يعني الاستعباد. فالأميركيون، الذين غرّهم النصر، طوقوا الشاه

بشكل جعلوه أسيرهم، يصعب عليه اي تصرف منفرد. وأمسى ينوء تحت وطأة نير لم يستطع التخلص منه بعد ذلك. بل انه كان مأخوذاً بسياسة اميركا وبكل ما هو اميركي. تماماً كما كانت اوروبا في الفترة الممتدة بين آخر الحرب العالمية الثانية وقيام الجمهورية الخامسة في فرنسا مع الجنرال شارل ديغول.

انا عشت هذه المأساة، وكنت غير بعيد عن الشاه، فشئت تنبيهه الى المخاطر المحدقة به. ولكن بعد فوات الأوان. فانزلاقه في التيار الاميركي كان قد قطع شوطاً كبيراً تصعب بعده اي عودة الى الوراء. وقد فتك هذا التيار بكل ارادة حسنة وبالنيات الطيبة جميعاً.

وصلت الى طهران في مطلع سنة ١٩٥٧ والشاه يمر يومها في مرحلة تجريبية. كان يجري الاصلاحات المرجوة. وكان محور كل تقدم، يشجع التعليم والطبابة. ولكنه غارق في مشاريع ضخمة منها ري المناطق القاحلة في امبراطوريته الواسعة. لا شك انه يود كسب عطف شعبه ولكنه يجهل نوع الكلام الذي ينتظره منه الايرانيون.

البلاد تكره الانكليز كراهية التحريم وكان الجميع ابان الحرب يرجو فوز دول المحور. معظم اهل الشرق الأوسط يخلط بين الاميركيين والانكليز. والشعب الايراني الذي شعر بالذل إبان الوجود العسكري الانكليزي في بلاده، لم يكن يفهم كيف يضع الامبراطور كل ثقته بالاميركيين. فكان افضل للشاه أن يبتعد بعض الشيء عن اصدقائه.

اما الاميركيون فلم يلبثوا أن عاملوا الشاه كزعيم دولة صغيرة نامية. وشاء الشاه ـ الذي كان صديقاً لجون فوستر دالس، والذي كان ايزنهاور يحترمه، ان ينشىء علاقات ودية مع الرئيس الاميركي الجديد جون كندي. لكن كندي الشاب ـ وقد غره انتصاره الدبلوماسي على خروتشيف في قضية صواريخ كوبا ـ استقبل الشاه بشيء من تعالٍ ناسياً انه يستقبل امبراطوراً. ولما كان يشكو من داء في العمود الفقري سمح لنفسه بمد ساقه على المقعد اثناء المقابلة. ثم انه استرسل في محاضرة طويلة حول الأصول الديمقراطية في الادارة. كأنه استاذ يلقن تلميذه

درساً. ولا شك ان الشاه اخذ بشخصية كندي، فتبع نصحه. وفي العام عينه، اي ١٩٦٣، بدأ تطبيق مبادىء الثورة البيضاء في الأرياف الايرانية.

الثورة البيضاء تشكل محطة اساسية في سياسة الشاه. الذي ابتدعها مصدّق. لكن الشاه تابعها بتعقل. وقد كرسها استفتاء شعبي. لأنها عدل. وهل اكثر تقدمية من قسمة الأراضي بين ابناء الشعب؟ لكن الأوقاف كانت ضمن الأراضي التي صودرت ثم وزعت. وكان القيمون عليها يعتبرون المساس بها نوعاً من أنواع الكفر. غير ان الشاه لم يأبه للتحذيرات وصادر الأوقاف. كما كان قد وزّع املاكاً ورثها من والده. لكن كبار الرأسماليين، هؤلاء الذين يمسكون بزمام الاقتصاد الايراني لم تمس ممتلكاتهم. أسد الله علم، مثلاً، كان يزرع الزعفران في مقاطعة خراسان، في أراضٍ تفوق مساحتها مساحة الجمهورية اللبنانية. الدكتور علي أميني كان يملك على شاطىء بحر قزوين أراضٍ اكبر لم تمس. فرأى الناس في الأمر ظلماً. ولاسيما ان الشاه الساعي الى احياء مشاريع عمرانية كبيرة كان بحاجة الى دعم الرأسماليين. هذا هو منطلق الصراع بين الشاه ورجال الدين. وازداد بغض الملالي لأميركا. فكندي هو الذي أوحى الى الشاه بهذه السياسة القائلة باعطاء صغار الفلاحين أرزاق الآخرين.

حدثت الثورة البيضاء؛ فعرف الشاه ابانها عهد يمن. ولم يرَ أي خطر محدق، بل قل إنه لم يشأ أن يرى. فكل شيء على ما يرام اذ البلاد تحرز تقدماً ملحوظاً في مختلف الميادين: الدبلوماسي والاقتصادي والعسكري. وزادت أزمة النفط في قوة الشاه اذ كان المستفيد الأكبر. فاستطاع أن يثأر من تبع الأميركيين اذ اصبح زعيم كتلة المعتدلين في الأوبيك. كما اصبح موضع تطلع الجميع. لا احد يرفض له امراً. هنري كسينجر انحنى له متزلفاً مبجلاً معظماً «الشاه العظيم» و«الامبراطور المثالي». الرئيس نيكسون لم يدخر ثناء في كلامه عن «الشاه العظيم» وما لبث الاميركيون ان وضعوا ترسانتهم الضخمة في خدمة حليف الغرب الكبير.

لكن النظام الايراني بدلاً من تحقيق استقلاليته وتثبيتها، صار ينجر يوماً

بعد يوم في أعقاب السياسة الاميركية.

الجيش الذي تدرب على أيدي خبراء أميركيين صار مرتبطاً بهم. والسافاك التي كانت تتعاون مع المخابرات الاميركية CIA اصبحت خاضعة لأوامرها. اما الشاه فلم يكن يشعر بهذا الانسياق وهذا الولاء الخطيرين، وظل يظن انه مستقل وقوي. وكان يرى ان الاقتصاد مزدهر من خلال الصورة التي رسمتها له بعض الشركات الاميركية، التي كانت حاجزاً بينه وبين شعب صغار التجار، وبخاصة أهل البازار، الذين يشكون من خسارة مستمرة.

الشاه النشوان بروائح البخور يحلم في جعل ايران خامسة دول العالم، في حين شرائط خطب الخميني ـ الكاسيتات ـ بدأت تتسرب الى البلاد، فتوزع في كل مكان، ناشرة خطرها الذي هو أقوى من المدافع الاميركية. غير ان النشوة كانت تعم البلاط وأهله أيضاً. أما انا، فعندما كنت احاول التحدث عن الخطر، كان ينظر اليّ شذراً. لأني، كما اسمتني جريدة «الشرق الأوسط»، عربي في بلاط الشاه»، فما علي اذاً الا لزوم التحفظ والاعتصام بالصمت.

لكن ذلك حملني على مراقبة ما يدور حولي وأن أرى بعين متيقظة. لعل ذلك ما يتيح لي ان اقول بتجرد إن الشاه كان ضحية الخارجية الاميركية وسياستها. هذه السياسة التي دأبت في السنوات الأخيرة في دغدغة كبرياء الشاه، وحبه العظمة والجاه، فجعلت منه عاهلاً منفياً في وسط شعبه.

هل أكون متجرداً في شهادتي؟ لا ادري. فالواقعية والتجرد ـ كما يقول مثل كردي ـ طائر نادر في رأس شجرة الحكمة.

نذير فنصَه

آيات الله

الشيعة في قلب تناقض سكن ايران طويلاً. انها الدين الرسمي، الذي بدا على الصعيد التاريخي حارساً للحضارة الفارسية في وجه السنة، التي انتصرت في معظم الدول العربية، وفي تركيا خاصة. هذا ما يفسر عداء الامام الخميني لكل ما هو عربي، ورغبته في الاستيلاء على بغداد اياً كان الثمن. ولعل المعركة التي يخوضها الخميني اليوم هي امتداد لكربلاء، الموقعة التي انتصر فيها بناة بغداد.

الشيعة والفارسية اذاً متلاقيتان. لكن رجال الدين الشيعة المنادين بأولوية الشريعة كانوا يطالبون بالحكم لهم دون شريك، ولطالما عادوا الحكم نصف الديني ونصف العلماني الذي تميّز به عهد الخلفاء. ففي رأي الشيعة، اذاً، ان حكم الشاه كان غير شرعي لأن السلطة يجب ان تكون محصورة في اهل البيت. ويفهم هنا كيف اضطر الشاه ناصر الدين مؤسس السلالة الصفاوية الى مجابهة رجال الدين بعنف منذ العام ١٨٤٨. وفي سنة ١٨٩٠، اشعلت ثورة المشايخ النار في البازار للمرة الأولى، ثم في سنة **١٩١٥** تزعّم المشايخ ثورة جديدة ضد الشاه مظفر الدين حليف الروس. وفي سنة **١٩٢١** ثارت القبائل بدورها على الشاه فتنحى لمصلحة حفيده احمد قاجار آخر السلالة. تلك الثورة، ايضاً، كان يقودها آيات الله. وفي عصر تعصف بالعالم الاسلامي موجة من التغيير والتجديد انبروا ينادون بحزم وعزم ان سلطتهم هي وحدها شرعية. وان الفقهاء هم وحدهم ورثة الامام علي بن ابي طالب حتى عودة الامام المنتظر، لذا يجب ان تكون بين ايديهم جميع السلطات: التشريعية والتنفيذية والقضائية. وهذا ما عاد

ليؤكده آية الله الخميني في مؤلفاته، فالشيوخ يستطيعون دون سواهم ايجاد سبل حكم عادل وجامع ودائم. واذا تسنّى لفقيه أن يمسك بزمام الحكم فلا بد له أن يعدل.

هنا، نفهم ثورة رجال الدين على رضا خان وقيامهم عليه بضراوة تفوق ما سبق. ذلك انه كان رجل اصلاحات وتجديد متأثراً بمصطفى كمال. ورئيس وزرائه ضياء الدين الطبطبائي ـ وقد عرفته عن كثب وقدرته صديقاً صدوقاً ـ كان في الواقع اساس هذه الثورة وهذا التجديد اللذين من شأنهما نشل ايران من ظلمات القرون الوسطى. فبدعم رضا خان، قائد فيلق القفقاس، قلب الطبطبائي آخر شاه في سلالة قاجار. وكان حلمه تطوير ايران وتحريرها من الوصاية الأجنبية. لكن الأمر لم يطل برضا خان حتى انقلب على الطبطبائي، وأبعده، ونصّب نفسه شاهاً على ايران. لكن الحلفاء ابعدوه الى جوهنسبورغ سنة ١٩٤٣ ونصّبوا مكانه ابنه محمد رضا بهلوي.

كان محمد خان عدواً لدوداً لرجال الدين. وكما مصطفى كمال سعى الى اخضاعهم. فاستولى على ممتلكاتهم وفرض رقابة على مداخيلهم القائمة على الزكاة. وقد اعتبر هذا النهج مساساً فظيعاً بكرامة المؤسسة الدينية.

محمد رضا بهلوي حذا حذو والده. وكان رجال الدين يرون في كل الاصلاحات نوعاً من محاربة لهم. ولاسيما ان بين المقربين من الشاه رجالاً ـ منهم رئيس الوزراء امير عباس هويدا ـ ينتمون الى البهائية. وعداء البهائيين لرجال الدين معروف.

اخيراً، عندما اعتنقت الأميرة شمس، شقيقة الشاه، الدين المسيحي، رأى المشايخ في الأمر تحدياً وفضيحة. فاضطر الشاه، بالرغم من محبته الفائقة لشقيقته، الى هدم الكنيسة التي كانت تبنيها وأنّبها شر تأنيب.

لا شك ان الشاه كان قد بدأ يعي الأخطار المحدقة به. ولكن، يوم عرضت عليه، لدى احدى زياراتي لبغداد، ان اعيد له علاقة مفقودة مع الخميني وأن

اصلح بينهما، رفض رفضاً باتاً. مع ان الأمر لم يكن مستحيلاً.

كان الخميني آنذاك لاجئاً سياسياً في النجف. وكانت علاقاته مع بغداد سيئة. وامكانية نفي جديد كانت لا تحلو له كثيراً. فرأيت الفرصة سانحة لمصالحة الفريقين، أو، على الأقل، للحد من العداء بينهما. فالحكمة تقضي بأن يسعى الشاه الى تفاوض. لكنه لم يقبل. ذلك ان عداءه للخميني كان قد قطع شوطاً كبيراً حيث لا عودة.

***

الثورة الاسلامية مرتبطة عضوياً بشخصية روح الله الخميني. بل انها تستمد قوتها من نظرته وكلمته. وهذا ينبىء منطقياً بعدم استمرارها بعده.

اياً يكن الخلف فلن تكون له هالة «المرشد» ولن يكون له سحره وتأثيره في الجماهير. غير ان طغمة رجال الدين لن تتخلى عن السلطة بسهولة. والمعتقَد الشيعي القائل بحصر السلطة في صفوف الفقهاء سيحمل آيات الله على محاربة القوى السياسية الأخرى بضراوة، في سبيل الحفاظ على السلطة والاستئثار بها.

بين «ورقة» الخميني الأوفر حظاً من رجال الدين تبرز شخصية حجة الاسلام هاشمي رفسنجاني. فشخصيته تأتي بعد شخصية الخميني كما عرفه العالم ابان عملية اختطاف طائرة الخطوط الجوية عبر العالم TWA سنة ١٩٥٥. فبينما كان الاميركيون يعتقدون أن مفتاح حل المعضلة هو بين ايدي السوريين انبرى رفسنجاني ليبين مدى سلطانه. ثم أفرج الخاطفون عن الرهائن بعد أن قطع الاميركيون وعداً لرفسنجاني بأن اسرائيل ستطلق سراح اسرى لبنانيين وفلسطينيين من مخيم أنصار.

مما يدل على ان هذا الرجل يحرّك في الخفاء قوى ضخمة! رفسنجاني هو خير من يتعامل مع الواقع الاقتصادي. هو سليل اسرة نافذة في البازار. هذا البازار الذي استطاع ان يحافظ دون سواه على سلطته الاقتصادية بعد هجرة رؤوس

الأموال اثر سقوط الشاه. وهو، الى ذلك، صديق حميم لنجل الخميني احمد، ولزعيم حراس الثورة محسن رفيق دست، ممثل الخميني الشخصي في المجلس الأعلى للدفاع. فقد استطاع رفسنجاني ان يكون نافذاً اكثر من سواه. والقرارات الهامة، في مختلف الميادين، تمر به.

ولكن، من يدري! فالخميني قد يعمّر. (شريعة مداري مات في الرابعة والتسعين ومثله آية الله بروجردي). هناك كثيرون ايضاً يتحدثون عن الموسوي ولكن، منطقياً، هو رفسنجاني الذي قد يتزعم الدولة يوماً ويمسك بمقدرات بلاد فارس التي هو احد مفاتيح العالم.

ولكن، مرة اخرى، من يدري! فهل ايران الاّ ارض الزلزلة والهزات؟

الشاه والولايات المتحدة

سقوط الشاه ـ وهو يثير العجب ـ لهو عبرة في تبيين ضعف الاستمرارية في سياسة واشنطن، وخطأ تحليلها، وحماقة نهجها. لأن اميركا هي التي ضيّعت الشاه بعد ان جرّته الى متاهات سياستها الخاطئة، كما الشاه ضيّع نفسه بفعل ثقته العمياء واخلاصه الكبير.

الدعم الاميركي للشاه، سياسياً كان ام عسكرياً، لم يتعدّ في النهاية أمر انشاء قاعدة صغيرة على محور الحرب الباردة. هذه السياسة ترقى الى سنة ١٩٤٦ وقد اتبعها سبعة رؤساء اميركيين.

كل شيء بدأ عند نهاية الحرب، يوم ظنت الادارة الاميركية ان الاتحاد السوفياتي يسعى الى فرض حكم شيوعي في طهران. وكانت قد بدأت تظهر في ايران قوى سياسية مختلفة أتت ردة فعل على الاحتلال البريطاني الذي فرض سنة ١٩٤١ على ايران بحجة الحرب. اهم هذه القوى هي الجبهة الوطنية والحزب الشيوعي (توده). ومن عابثات الزمان ان هذين الحزبين هما اللذان انقذا سلالة بهلوي بزرعهما الخوف في قلوب الاميركيين والبريطانيين من استمرار سياسة الاتحاد السوفياتي الرامية الى ضم الدول اليها، كما حصل في معظم بلدان اوروبا الشرقية. على صعيد آخر فان مثل جمهوريتي اباد وأزربدجيان اللتين انشئتا سنة ١٩٤٥ ثم ضمتهما اليها موسكو بسرعة، يبين استمرار الحلم القيصري القديم الساعي للوصول الى البحار الدافئة والى مناطق غنية بالنفط واستراتيجية. في هذه

المناطق كان الاميركيون دون الانكليز نفوذاً لأن هؤلاء في الواقع يمسكون بزمام السلطتين العسكرية والاقتصادية. من الخطأ اذاً مجابهتهم علناً. لذا قرر الاميركيون تقديم مساعدتهم الى الشاه كدعم ستراتيجي، وهو اطار يمكن تفسيره، ولو لفترة، كإبعاد للانكليز. وقد ارغم ترومان ستالين على اجلاء قواته من ايران فاستطاع عندئذ جيش الشاه، وفي غضون اسابيع، سحق مقاومة الجمهوريتين الانفصاليتين.

وزُوّد الجيش الايراني، على غرار الجيش التركي، بأسلحة اميركية. وذلك عملاً بنظرية ترومان التي ادت فيما بعد الى انشاء السنتو. النهج ليس جديداً! ففي سنة ١٩٢١، قامت بريطانيا، رغبةً منها في تقوية نفوذها، بمد الضابط القفقاسي رضا خان بالأسلحة والمال، ليتمكن من قلب سلالة قاجار.

المرحلة الأساسية في تاريخ العلاقات الاميركية الايرانية تمتد بين سنتي ١٩٥١ ١٩٥٣. يومها، كانت الحركة التي يتزعمها الدكتور مصدّق تسعى الى كسر النفوذ البريطاني عن طريق تأميم البترول والى الحد من سلطة الشاه باطلاق مبادرة ديمقراطية. وكانت المحاولة هامة للغاية اذ اتت منبئة بما حدث اليوم. وكان لمصدق صديق كبير هو آية الله كاشاني، هذا الذي ذاع صيته يوم تكفّن ابان تظاهرة راح يدعو فيها الايرانيين الى الاستشهاد في سبيل الحرية. الى جانب مصدق وقف ايضاً تجار البازار والشيوعيون والجبهة الشعبية طبعاً، وهي التجمع الذي اسسه مصدق.

هذه الهبة كانت تنبىء بثورة الخميني الاسلامية، وبالحركة الناصرية التي قضت على الوجود البريطاني في مصر، وفي العراق، وفي معظم دول الشرق الأوسط. اما مصدق فكان يخشى الانكليز. لم يكن يتوقع هذه الصدمة التي اتته من الاميركيين والتي غابت معالمها آنذاك عن المخابرات البريطانية نفسها. فعملية حرب الشاه أدت الى الانقلاب الذي اطاح بمصدق وهو في اوج مجده.

منذ مطلع العام ١٩٥٣، كانت القوات الايرانية جاهزة. في شهر آب، سافرت الأميرة أشرف ـ شقيقة الشاه التوأمة ـ الى سويسره للاجتماع بألان دالس

مدير المخابرات الاميركية (CIA). بعد ذلك توجه كيريت روزفلت ـ حفيد الرئيس فرنكلين روزفلت ـ الى طهران حاملاً عشرة ملايين دولار. وقد أُنفق قسم من هذا المال لشراء زعماء الأحياء الشعبية، في سبيل اضفاء صبغة عفوية على الانتفاضة ضد مصدق. اما من الناحية العسكرية، فقد اوكلت العملية الى الكولونيل شوارزكوبوف المسؤول السابق في البوليس الاميركي (FBI). وكان قبل ذلك مستشاراً عسكرياً في ايران ويعرف الجنرال زاهدي شخصياً، فبرر وجوده في طهران باعلانه على الملأ انه جاء ليلتقي اصدقاء قدماء. وتمّت العملية على الوجه التالي:

اصدر الشاه مرسوماً باقالة الدكتور مصدق، وكلف الكولونيل نصيري[1] إعلام رئيس الوزراء المخلوع بالقرار. رفض مصدّق الرضوخ واعتبر القرار غير مشروع واسر نصيري. عندئذ هرب الشاه والامبراطورة ثريا الى روما بعد ان ادعى ان حياته لم تعد بمأمن. وكلف الجنرال زاهدي بتشكيل حكومة جديدة. بعد ثلاثة ايام، في ١٧ آب، انطلقت الجماهير تطالب بسقوط مصدق ووزير خارجيته فاطمي الشهير بعدائه للسلالة البهلوية. وكان الجنرال زاهدي يدعم الانتفاضة الشعبية فألقى الجيش القبض على مصدق وعلى آلاف انصاره. وقد قام الجنرال تيمور بختيار بدور فعّال في هذا الانقلاب السياسي اذ كان له المنسّق الأكبر. بعد ذلك سيصبح دوره اساسياً اذ سيعين حاكماً عسكرياً لطهران وسينشىء السافاك ويكون اول رئيس لها.

اما الاميركيون فقد اصابوا عصفورين بحجر. استطاعوا ابعاد اعداء الشاه وأعداء الغرب لوقت طويل لكنهم ابعدوا ايضاً بريطانيا من هذه المنطقة حيث نفوذها قديم. لعل الأوساط المالية اول من تبين ذلك، ساعة بدا التغير في العلاقات الانكليزية الايرانية. وأصبح السيد روزفلت نوعاً من صلة وصل دائمة بين اوساط الأعمال الاميركية والأوساط الايرانية. وفي كل مكان، في ايران كما في

(١) الكولونيل نصيري، الجنرال فيما بعد، قاد السافاك ١٣ سنة. وقد أعدمه نظام الخميني.

باقي دول الشرق الأوسط، بدأت الولايات المتحدة تحل مكان بريطانيا. انها صفحة تطوى. وقد بدأت العلاقات بين واشنطن وطهران تتوطد بشكل مستمر وفريد.

نظرية الفراغ، وقد وضعها جون فوستر دالس، أدت الى انشاء حلف بغداد الذي ضم ايران والعراق وتركيا وباكستان وبالطبع الولايات المتحدة وبريطانيا. وكانت دعامتي هذا الحلف في الشرق تركيا وايران. هذا الحلف أثار عداء جمال عبد الناصر وكثيرين من القوميين العرب بالنسبة الى الغرب اذ رأوا في هذا الحلف تحالفاً ضدهم. واتخذت سوريا موقفاً شبيهاً بالموقف المصري. اما الحلف، فان لم يؤدّ الى مضاعفات في باكستان وتركيا، فقد تسبب في العراق باضطرابات كبيرة. وفي ايران عزل الشاه وأضعف شعبيته. فبدأ العد العكسي.

استمر الحلف حتى تموز ١٩٥٨، وبعد الثورة العراقية ومقتل الملك فيصل الثاني ملك العراق وولي عهده الأمير عبد الاله، أعيد خلط اوراقه فسمي سنتو (CENTO). لكنه كان دون جدوى ولم يستطع الصمود في وجه الهزات المتكاثرة التي زعزعت المنطقة. فحلت مكانه المعاهدة الاميركية الايرانية التي سعى الاميركيون من خلالها الى تصحيح خطائهم السابقة. وقد اصبحت ايران حليفة اميركا وصديقها ومحميتها وأيضاً... مستعمرتها. أما الشاه الذي كان من قبل في نوع من عزلة، فقد فقَد الآن كل طاقة على التحرك.

هذا الحلف ـ أو المعاهدة ـ اعطى الاميركيين امتيازات ضخمة. منح خبراءهم حصانة دبلوماسية، وسمح لهم باقامة قواعد جوية بدت كأنها نوع من احتلال. اما الشاه فكان كالطائر الذي يغني خارج سربه. فمغامرته ضخمة اذ راهن على نجاح الاميركيين وانتصاراتهم. ونتيجة ذلك اصبح محاطاً بخصوم وأعداء. فحصلت انتفاضة شعبية بقيادة الخميني. انتفاضة لم ترَ ايران بضخامتها منذ ايام مصدق. وجاء القمع شرساً وقد حُكي عن سقوط مئات القتلى. لكن الخميني لم يُعدَم. فنقلته سيارة تابعة للسافاك الى الحدود التركية. وعاد الهدوء الى

طهران وقم. فالشاه الذي اطلق ثورته البيضاء رأى في نجاح الاستفتاء الشعبي دلالة على التأييد العام. لكن البركان لم ينطفىء. بل انه خمد نوعاً ما.

***

منتصف الستينات وأواخرها كانت بالنسبة الى العلاقات الاميركية الايرانية نوعاً من عصر ذهبي. فالشاه الذي كانت الادارة الاميركية تنظر اليه كشاب يافع اصبح الآن ذا اهمية كبرى بالنسبة الى الاميركيين.

فالفتور الذي عرفته العلاقات الاميركية العربية بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، خدم مصالح الشاه كما خدمها فيما بعد افول نجم عبد الناصر. ولم يعد اي زعيم في منطقة الخليج يضاهي الشاه قدرة وعظمة. وبما ان بريطانيا لم تعد حامية الكويت والامارات العربية، فالدور الأساسي امسى لايران. ولاسيما ان العلاقات ممتازة بين الشاه والرئيس ريشارد نيكسون. وكان نيكسون، قبيل تسلمه مهام الرئاسة الاميركية قد اتفق مع الشاه على بعض الأسس ذات الأهمية المشتركة سياسياً وجغرافياً. وفي هذا الشأن كتب الشاه في مذكراته: «لقد اتفقنا على ضرورة تضامن كل دولة مع حلفائها الطبيعيين الذين تربطها بهم مصالح دائمة، ونظرة نيكسون للأمور تتوافق مع آراء الشاه، إذ تقول بتأنٍ دقيق في اختيار الحلفاء وفي توزيع المساعدات الاميركية. لأن حليفاً اميناً ومخلصاً خير من مجموعة شركاء متقلبين أو متأرجحين هذه النظرة السياسية ستؤدي في ما بعد الى نظرية «الركيزتين التوأمتين» وما هاتان الركيزتان الا ايران والسعودية.

واعتبر الشاه انه شرطي الخليج الحقيقي. ففي اول تشرين الثاني ١٩٧٧، اي عشية انتهاء الضمان البريطاني لامارات الخليج، احتل الجيش الايراني الجزر الثلاث القائمة على ضفة مضيق هرمز اليسرى. وهي جزر، أو بالأحرى جزيرات، ابو موسى والطنب الكبرى والطنب الصغرى. هذه الجزر كانت لزمن طويل تخص مشايخ الشارقة ورأس الخيمة، غير ان الشاه كان يعتبرها ممتلكات ايرانية. وقد غرّه كثيراً هذا المكسب الستراتيجي. كما انه تدخل لمقاومة الفتنة

الماركسية في سلطنة عُمان، فانزل فيها فيلقاً مدرعاً ولواء مظليين. فأدى مساعدة جلّى لحاكم عمان الشاب السلطان قابوس بن سعيد. كما انه دعم الثوار الأكراد الذين قاموا على السلطة في العراق. وفي ذلك كله كان يتجاوب مع الارشاد الذي يأتيه من مبعوث نيكسون، جون كوتلي. فالبيت الأبيض الذي يخشى انحراف بغداد نحو الاتحاد السوفياتي، كأنما شاء ان يخط بقلم احمر المتاعب التي لا بد ان تواجه العراقيين في حال حصول مثل هذا الانحراف.

محادثات الجزائر سنة ١٩٧٥، بين العراق وايران، كانت في سبيل مصالحة الدولتين ولكنها كانت تهدف ايضاً الى اعادة التوازن في لعبة النفوذ والقوى في منطقة الخليج لمصلحة الشاه. الاميركيون والسوفياتيون لم يشتركوا في هذه اللقاءات وبذلك بدت دول الشرق الأوسط كأنها تحل مشاكلها بنفسها ودون اللجوء الى احد.

الشاه استمر في علاقاته الطيبة مع الاميركيين ولكن اسلوب التعامل قد تغيّر كثيراً منذ ايام كنيدي، اذ صار ينظر الى الادارة الاميركية بشيء من تعالٍ. وكل ما يدخل في اطار العلاقات بين واشنطن وطهران اصبح يمر عبره. عبره دون سواه. ويوم التقى محمد حسنين هيكل عام ١٩٧٥ صرّح اليه بما معناه:

«سأعرض عليك سياستنا الدفاعية. إنّي اعيش في منطقة تسمونها انتم بالذات مركز الثقل أو محور العالم. اني مؤمن بمستقبل هذه المنطقة. لي فيها مصالح علي الحفاظ عليها. لدي وظيفة احرص على الاضطلاع بها. لديّ سياسة عليّ اتّباعها. ضروري اذاً ان تكون هناك قوة عسكرية لحماية هذه المصالح، وهذه المهمة، وهذه السياسة. قوتنا العسكرية مؤهلة لصد اي خطر، انّى أتى. فاذا هاجمنا من هو اضعف منا استطعنا تدبير امرنا. كما اننا نستطيع التصدي لقوة موازية لقوتنا. اما اذا هاجمتنا قوة كبرى فالأمر يختلف. فعندها تكون قواتنا المسلحة درعاً لنا تقينا وقتاً كافياً ليتمكن اصدقاؤ نا من الوصول الينا ونجدتنا.

ضروري ان تكون القوات الجوية الايرانية قادرة على حماية هذه المنطقة،

ومن الخليج الفارسي حتى بحر اليابان. الهند متداعية وستصبح مع باكستان سوقاً للصناعات الايرانية. ولكن ضروري ايضاً حماية باكستان من أي عدوان هندي».

كان الشاه يومها قد بدأ يؤخذ بنظرته الكونية للأمور. اما عن الوضع الايراني الداخلي فلم يكن يعرف الاّ ما تقدمه له التقارير الرسمية القائلة ان البلاد تزداد ثراءً يوماً بعد يوم. ورئيس وزرائه كان يعطي صورة بأنه يمسك بزمام الأمور. ولكن الواقع كان مختلفاً. فمليارات الدولارات التي تتدفق على المصرف المركزي، لم يكن يستفيد منها الاّ الأقربون ورجال الحاشية الذين اصبحوا بواقع الأمر المحاورين الطبيعيين لرجال الاقتصاد في العالم. صحيح ان الطبقة الوسطى كانت تستفيد من نمو اقتصادي هو من اعلى الدرجات في العالم غير ان التضخم كان يأكل طاقتها الشرائية. اما الطبقات الفقيرة فقد هجرت الريف الى المدن سعياً الى عمل. وهكذا اصبحت طهران مدينة مكتظة بالسكان، تغص بالمعدمين الذين ينتظرون مساعدات الدولة. وهكذا، سيطرت البطالة لأن ايران في طريقها الى التقدم الصناعي كانت بحاجة الى اختصاصيين والى تقنيين لا الى يد عمل جاهلة. وباستثناء طهران وعبدان فان المدن والقرى الايرانية كانت غرقى في مجاهل الماضي. وبدأت بذور الثورة تتمخض في هذه الأوساط المحرومة. وأصبحت طهران، حيث بزخ الأغنياء، وحيث المستفيدون من التطور الاقتصادي، مهداً للأفكار الثورية. وبخاصة ان الوجود العسكري الاميركي مبعث مستمر للسخط الشعبي فيها.

في سنة ١٩٧٦، كان في طهران حوالى خمسين الف خبير ومستشار اميركي يعيشون فيها بينهم، ويعاملون الايرانيين كشعب متخلف، رافضين الاعتراف بضرورة احترام، ولو قليلاً، اسس تقاليده وعاداته. موادهم الغذائية كانت تأتيهم من المانيا الغربية بواسطة طائرات نقل ضخمة (KC135)، ويشترونها من محلات مختصة. ففي سنة ١٩٧٧ كانت المخابرات الاسرائيلية (موساد)، وهي كثيرة الاطلاع، تتوقع هزات خطيرة في ايران في حين كان البيت الأبيض يظن ان الشاه باقٍ طوال السنوات العشر اللاحقة. مع ان المعلومات كانت هي هي، غير

ان الاميركيين لم يكونوا يقدرون الأمور.

فمنذ سنة ١٨٧٧ كانت لدى المخابرات الاميركية CIA تقارير تنبىء بانفجار شعبي شبيه بالذي حصل ايام مصدق. ولكن البيت الأبيض ـ ابتداء بالرئيس كارتر ـ لم يكن يتوقع شيئاً ولا يفكر في القيام بأي مبادرة، فيذهب محيط الرئيس الاميركي الى التفنن في توجيه النقد الى الشاه، وفي اتهامه بعدم احترام حقوق الانسان، وبعدم الاستناد في الحكم الى دستور ديمقراطي. وشعر الشاه بالتأرجح الاميركي، وهذا يفسّر تصلّب طهران المفاجىء ازاء واشنطن. وأكثر من ذلك، فان السفير سوليفان ـ صديق كارتر الحميم ـ كان فواشاً وسطحياً كما رئيسه، وتنقصه الطاقة الفكرية ليتسنى له تحليل المواقف والأحداث. وبخفة غير معقولة، راح يبيّن للملأ انه لا يؤيد سياسة الشاه. حتى انه بدعوته رجال المعارضة الى المشاركة في الحكم، بدا وكأنه يناصرهم. بحيث ان السفارة الاميركية، بدلاً من مساعدة الحكم الايراني في حل بعض المشاكل يوم كان للرأي مكان، عمدت الى تعقيد مهمة رئيس الوزراء عباس هويدا، والى جعلها اكثر صعوبة. وتأزمت الأوضاع في الداخل دون ان تكون الأمور ظاهرة، فالشاه المصاب بالسرطان لم يستطع الاستمرار في نشاطه المعهود. مع ان كل شيء يمر عبره. فهل كان يشعر بالخطر المحدق؟ الظاهر انه ظل متفائلاً. فالعصر عصر ازدهار وايران مزدهرة. ولعل الرئيس انور السادات اول من لفت انظار الاميركيين الى الوضع المتردي في ايران بإعرابه عن مخاوفه ازاء الأمر، اثناء محادثات كمب دافيد.

والذي يثير استغراب المراقب ان العلاقات الايرانية الاميركية تأزمت في فترة كان لا بد لها ان تزداد قوة. والخطأ في ذلك يقع على جيمي كارتر ورجاله الذين عجزوا عن تكوين رأي شخصي والذين كانوا ينساقون وراء آخر من يلتقونه. وجدير بالذكر ايضاً ان الشاه، منذ سنة ١٩٧٧، بدأ يبدي حذراً ازاء الاميركيين. ولهذا الحذر اسباب واضحة، وهو موقف اميركا المتأرجح والمتناقض ابان الحرب بين الصومال وأثيوبيا. فأميركا، التي كانت قد شجعت الصومال على محاربة اثيوبيا، تخلّت عنها فجأة، عندما رأت الاثيوبيين يصدّون الهجوم الصومالي

في اوغادين. وطلبت من الشاه ان يساعد الصومال.

ومما زاد في حذر الشاه ومخاوفه، ما رأى لدى سفير اميركا سوليفان اذ فكّر في ان توقف ايران شحن النفط لاسرائيل، وذلك بغية الضغط على بيغن وجره الى اكثر مرونة في المحادثات حول الانسحاب من الأراضي المحتلة. فذكّر الشاه سوليفان بأن اميركا ـ في احد ملاحق المعاهدة المصرية الاسرائيلية ـ كانت قد ضمنت شحن النفط الى اسرائيل. وانه هو بالتالي حرّ التصرف كيفما شاء. وهنا بدأ الشاه يشك في استمرارية السياسة الاميركية التي طالما آمن بها. وقد اتته معلومات تقول ان الخارجية الاميركية ـ منذ دخول كارتر البيت الأبيض ـ قد بدأت تميل الى اعادة النظر في المعاهدة التي بموجبها تتعهد اميركا بالدفاع عن ايران. وبخاصة في حال حصول عدوان شيوعي.

وفي الأمم المتحدة ادلى اندرو يونغ بتصريحات مسيئة الى الشاه. فتأزمت العلاقات حتى ان الشاه طلب من واشنطن توضيحاً في شأن حقيقة موقفها من ايران. غير ان التطمينات الاميركية المتكررة في شأن احترام الالتزامات السابقة لم تبدُ كافية لتبدد شكوك الشاه واعادة الثقة اليه بالنسبة الى حليفته المتقلبة.

وتفاقمت الأوضاع. فكارتر لم يكن يتتبع بالدقة الكافية التطورات السياسية التي يفرزها الصراع العربي الاسرائيلي ليتوصل الى نتائج دبلوماسية ملموسة.

كان سطحياً ومتقلباً، يتكل على مستشاريه، ولا يتعمق شخصياً في الأحداث. فيوم زار كارتر ايران سنة ١٩٧٧، عرض عليه الشاه، الذي كان يراهن على تقارب اردني اسرائيلي، فكرة التلاقي مع الملك حسين والتحادث معه. كارتر لم يكن يرى ضرورة في ذلك، لكنه قبل نزولاً عند الحاح الشاه. واجتمع بالحسين ولكن في ساعة متأخرة من الليل، بعد وليمة ضخمة، فلم يكن يملك الطاقة لتقدير اهمية ملك الأردن وموقفه.

وقد بدا التباين كبيراً بين اقوال الرئيس كارتر وتصاريح مبعوثيه. ففي اول

كانون الثاني من سنة ١٩٧٨، يوم زار كارتر طهران لقضاء سهرة رأس السنة فيها، راح يستعمل ارفع كلمات التبجيل والاطراء للاشادة بالشاه وبنظامه. ولكن بعد أشهر، اي في صيف السنة عينها، اضطر السفير الايراني اردشيز زاهدي الى مغادرة واشنطن الى طهران بسرعة بعد ما لقي من تأرجح في مواقف كارتر، ووالتر مونديل، وسيروس فانس. فالتأييد الكلامي الذي كان يسمعه في البيت الأبيض لم يكن يتوافق مع التهم التي شرعت الخارجية الاميركية في توجيهها الى السافاك. فازدادت الأجواء تلبداً.

اضف الى ذلك الخطأ الذي ارتكبته منظمة حقوق الانسان في واشنطن. وهي بدعة من اختراعات كارتر تشرف عليها الخارجية الاميركية. فهذه المنظمة التي كان يونغ لولبها، وضعت سنة ١٩٧٧ لائحة بالدول حيث حقوق الانسان موضع خلل، ووضعت ايران في مصف الدول الأكثر تنكيلاً بهذه الحقوق. وقد اساء هذا التقرير الى ايران كما كبّل الادارة الاميركية. فقد اوقفت مثلاً شحنة من القنابل المسيلة للدموع التي كان الشاه قد طالب بها للتصدي للتظاهرات في المدن. وبالرغم من الحاح بريجنسكي - الذي كان يفهم حقيقة الوضع في ايران - تأخرت الشحنة حوالى سنة. مما يدل بوضوح على تقلب السياسة الاميركية حيث تكثر الصراعات الداخلية.

وانصرف كارتر الى اجراء ضغوط على الشاه ساعة كان الامبراطور الايراني بحاجة الى دعم. فالسفير اندرو يونغ راح يهاجم طهران باستمرار من على منبر الأمم المتحدة، متهماً اياها بعدم احترام حقوق الانسان. اما هنري بريشت، مدير قسم الشؤون الايرانية في الخارجية الاميركية، فراح يدلي بتصريحات صحافية معادية للنظام الايراني. واصبحت مسألة حقوق الانسان نقطة خلاف مستمر بين القصر والسفارة الاميركية في طهران. السفير سوليفان الذي كان يود الظهور وكأنه مفوض سام، كان في الواقع دبلوماسياً فاشلاً متعطشاً الى الدعاية الشخصية. لم يكن يعلم شيئاً عن واقع الشرق الأوسط. اما تصريحاته المتناقضة، فقد شجعت المعارضة الدينية غير مرة اذ رأت فيها تخلياً اميركياً عن الشاه.

اما الشاه فكان موضع حرب نفوذ في قلب الادارة الاميركية. كان يستطيع مثلاً الاتكال على نلسون روكفلر، الصديق الحميم لسفير ايران في واشنطن: زاهدي. وقد طلب نلسون روكفلر الى كارتر - بمساعدة بريجنسكي - توضيحاً في شأن حقيقة دعمه لايران. ولكن الجواب البات لم يأتِ. بريجنسكي - ودوره هام جداً في مجلس الأمن القومي - كان يؤكد ان طبيعة النظام الايراني هي ثانوية. وان ايران تشكل اهمية حيوية بالنسبة الى الولايات المتحدة، بحيث يجب مساعدة الشاه على الاحتفاظ بالسلطة بشتى الطرق.

في هذا الاطار، لا بد من الاشارة الى سلسلة الاتصالات الهاتفية واللاسلكية التي حصلت؛ فالشاه بعد مكالمة هاتفية يتلقى فيها تأييداً من كارتر بضغط من الجناح المتصلب، كان يصر على طلب تأكيد برقي على محتوى المكالمة. لأنه كان يشك في صلابة موقف الرئيس الاميركي ورصانته.

وتتأخر البرقية، وتأتي محوّرة أو قل «ملطّفة». ذلك انها اثناء ذلك تكون قد مرّت تحت وطأة قلم والتر مونديل.

واستمر التأرجح وازداد، حتى الثامن من ايلول ١٩٧٨، المعروف بالجمعة الأسود. فقد تلقى الشاه مكالمتين واحدة من السادات والأخرى من كارتر. الرئيس المصري اعترف بأنه لا يستطيع شيئاً لنجدة الشاه انما وعده بالدعم الدبلوماسي الممكن لدى اصدقائه الزعماء العرب. اما كارتر فكان متصلباً. ذلك انه طلب من الشاه اعادة النظر في مجمل طروحاته السياسية.

بعد ذلك بقليل، وفي اليوم عينه، استقبل الشاه ضباطاً اميركيين رفيعي المستوى، ومسؤولين في المخابرات (CIA)، وشخصيات سياسية نصحوا اليه جميعاً الاعتصام بالحزم.

اما الموقف الاميركي بالنسبة الى خصوم الشاه وأعدائه، فقد اتسم بالتردد عينه بل بنوع من التعامي. فكارتر كان على حذر من المخابرات CIA ويرى ان معلوماتها لا تخلو من مبالغة بل انها تعطيه تصورات دراماتيكية للأمور. فبعض

رجال الحاشية تخوفوا من الثورة الصاعدة التي يتزعمها طلاب ومثقفون يعيشون في اميركا وينصرفون الى عمليات دعائية تنشرها الصحف بشيء من تعاطف. المجلة الاميركية Fortune التي كانت تفقه الأمور، حملت على هذه الحملة الدعائية الواسعة التي راحت تصور الخميني كرجل ديمقراطي يحلم في العيش حسب معتقده والتعاليم الدينية، ويحرص على حسن التعامل مع الجميع. الواشنطن بوست نشرت مقتطفات من كتاب «الحكومة الاسلامية»، ولكنها مقتطفات ملطفة ومقتبسة ومحورة بحيث يتقبلها الرأي العام الاميركي. ولاسيما ان لا احد في الادارة او المخابرات الاميركية كان قد يستطيع الحصول على نسخة من الكتاب الأصلي الذي يحتوي على مغزى آخر.

وتضاربت الآراء بين رجال الفكر والعلم والانتليجنسيا عامة في شأن الخميني وآرائه. مع ان البروفسور مارفين زونيس، الذي أجرى معه مقابلة موسعة، وضع تقريراً مفصلاً رفعه الى مسؤولي الخارجية الاميركية. وقد جاء في هذا التقرير ان الخميني متعصب صلب، مؤمن بأنه في حال وصوله الى السلطة سيحطّم كل ما يقف في وجهه.

ولكن الادارة الاميركية ظلت على قناعتها السابقة التي صوّرها لها السفير يونغ الذي وصف الخميني بأنه رجل صالح بل ولي بين الأولياء. وقد اكد كريم سنجابي، زعيم الجبهة الوطنية، ان الخميني رجل حوار واعتدال وان الأحزاب السياسية قادرة على السيطرة عليه.

هذا الموقف الذي كان ايضاً موقف كارتر يفسّر التخاذل الاميركي الذي بان في ما بعد.

ففي تشرين الثاني من سنة ١٩٧٨ قام طلاب جامعة طهران بتظاهرات عنيفة امتدت بشكل لم يعد يسهل وقفها بالأساليب المألوفة. فأقدم المتظاهرون على احراق السفارة البريطانية. كما احرقوا مباني عديدة في العاصمة. وبعض الفنادق وعدد كبير من المصارف بعد نهبها.

وفي واشنطن كان المسؤولون يقومون بنوع من تمثيلية سياسية حيث البطولة عائدة الى الديمقراطية. فقد اعدّت الخارجية برقية الى الشاه يسلمها له سوليفان وفيها نصيحة بضرورة التنحي لحكومة ائتلافية تمثل كل الفئات. ولكن بريجنسكي الذي كان متفهماً للوضع، مدركاً لما يحدث، استطاع في آخر لحظة ان يلغي البرقية. لكن سيروس فانس كان يعتقد ان الشاه هو اساس الداء في ايران. ولدى اعلانه ذلك، كان مصير الشاه قد تحوّل بالنسبة الى الادارة الاميركية، وهوى.

مع ان بريجنسكي وشليسنجر كانا يريان بدء الكارثة وأهميتها. فنصحا الرئيس الاميركي بارسال قطع من الاسطول الى الخليج مع مقاتلين مستعدين للتدخل السريع ساعة تعطى لهم الأوامر. وكلّفت حاملة الطائرات «كونستلايشن» بهذه المهمة. ولكن ما إن ابحرت الحاملة حتى تلقت اوامر مضادة تأمرها بالعودة الى قاعدتها. وسئل كارتر عن الأمر فاعترف بعجزه. المستشار الأول في السفارة الاميركية جورج لامبراسكيس بدأ ينشىء علاقات مع ممثلين عن الثورة الاسلامية. لكن سوليفان بدأ يفتح عينيه، فأبرق الى واشنطن قائلاً انه يجب بذل المستحيل لمنع الخميني من تسلم زمام الحكم. لعلهم حراس الثورة، الشاعرين باقتراب النصر، قد كشفوا عن وجههم الحقيقي! واقترح سوليفان في برقيته ان يطلب كارتر من الجبهة الوطنية تأييداً ومساندة.

ولكن هنا جاءت الضربة القاضية. الضربة التي وجهها للشاه الاميركيون الذين طالما آمن بهم. فقد علم ان الجنرال روبرت هويسر موجود في طهران. وهويسر ضابط كبير في سلاح الجو الاميركي. ولم يسع الى مقابلة الشاه بل بالعكس احاط وجوده في العاصمة الايرانية بالكتمان الكامل. واتصل بقادة في الجيش يعرفهم تماماً منهم رئيس الأركان الجنرال قره باغي. وأقنعهم بأن الجيش لا يمكن ان يشترك في الأحداث بل عليه ان يظل محايداً. بل عليه ان لا يسعى الى تجليس الأمور. وباسم الولايات المتحدة راح يتحدث عن فترة انتقالية في السلطة. ويوم زار الشاه بمعية سوليفان، كان ذلك في نهاية المطاف وليسأله متى سيغادر ايران؟! وبالاضافة الى مهمته الأساسية الرامية الى الاطاحة بالشاه كان هويسر يسعى الى حمل ضباط الجيش على اتباع مهدي بازركان. وحذّر الضباط

من اي محاولة انقلابية مؤكداً موقف اميركا الرافض للتحركات العسكرية، واقنع كارتر بأن بازركان هذا اليساري الذي عرف في الماضي مصدق سيكون الرجل الذي سيفتح ابواب الحكم على الديمقراطية.

وفجأة، كأنه تلقى نوراً سماوياً، بعث سوليفان بتقرير يصور فيه الخميني - والثورة التي يقودها - على حقيقته. ولكن كارتر - كما كثيرون - لم يكن يحب الأخبار الداعية الى التشاؤم.

هنا، لا بد من الاشارة الى ان الاميركيين لم يحركوا ساكناً ولم يحاولوا التدخل، قبل فوات الأوان. فافتقارهم الى محللين وخبراء رصينين حملهم على الدفع بالشاه في متاهات بل في مأزق فظيع، بدلاً من تقديمهم له هذا المزيد من الثقة والمصداق اللذين كان بحاجة اليهما، وذلك قبل سنة ١٩٧٨. ولاسيما انه لم يكن يتقبل فكرة الفشل في تحقيق احلامه. فلقد عاش بعيداً عن الواقع حتى انه لم يعد يشعر بتقلبات الزمان.

الخطر لم يعد الآن نابعاً من الخارج، بل من الداخل، ومن المشايخ اعينهم، والذي لم يتوصل اليه السوفياتيون، اذ يطول عليهم - الا بشنهم حروباً طاحنة في تخوم بلاد فارس الواسعة - استطاع وحده، رجل شيخ، ومن الداخل.

هذه هي الأمثولة الكبرى.

امثولة برسم الغرب كله:

إن الامبراطوريات تهوي من الداخل.

علاقات الشاه باسرائيل

حاولت كثيراً أن اجد تفسيراً لهذا التدهور السريع والغريب. هناك من يرد اسباب ذلك لتعسف السافاك، أو لجو القمع، أو للتضخم الفوضوي، أو لفقدان الود بين الشاه والشعب. لكن هذه جميعاً غير كافية. اذ هناك عوامل اخرى، ايجابية، كانت لصالح الشاه. ولكني توصلت الى القول إن انفجاراً ضخماً كالذي حصل لم يكن ممكناً لولا تراكم الأحقاد، ولولا استفحال جو من العداء الكبير، ومن كراهية لا علاقة لها بحقوق الانسان.

التفسير- اذا كان هناك من تفسير- مرده الى هذا النوع من الشعور بالحرمان الناجم عن الوجود العسكري في ايران؛ وقد رأى فيه الكثيرون نوعاً من احتلال عسكري. وهناك تفسير آخر، أصوب، قوامه العلاقات المميزة التي اقامها الشاه مع اسرائيل.

في سنة ١٩٧٩ كان ثمانون الف يهودي يعيشون في ايران، منهم حوالى ستين الفاً في طهران. ولا بد أن يكون بين هؤلاء حوالى خمسة آلاف «عميل»، يخدمون في آن معاً مصالح الشاه ومصالح تل ابيب.

لم يكن هؤلاء اليهود من الغوغائيين. لم يكونوا اصحاب مشاكل، ولا من زبانية الحانات والمقاهي الليلية. فالتعليمات التي تصل اليهم من اسحق حوفي، رئيس المخابرات الاسرائيلية (موساد) كانت توصيهم باقامة علاقات حسن جوار مع ابناء الشعب الايراني، وبتفادي كل استفزاز، وبتجنب المستفزين وتحاشي

الصدامات، ولكن بنوع من اباء وترفع. اضف الى ذلك ان هؤلاء المستشارين الاسرائيليين الذين كانوا يتسترون وراء واجهات محترمة كانوا يتكلمون الفارسية. وقد تلقوا تعليماً هيأهم على العيش في ايران حيث مظاهر التحضر، في الريف خاصة، كانت تخبىء تقاليد عتيقة، امست معرفتها خير تأشيرة دخول الى هذا العالم القائم بذاته. من هذه التقاليد مثلاً انه لا يجوز لزائر، اياً كان، وأياً كان السبب، أن يدخل عتبة دار في غياب رب البيت. وعندما يأتي الطبيب لعيادة مريض، يلازمه رب المنزل طوال اقامته ولا يتركه ابداً وحده مع المريض.

... وهكذا، فان اليهود كانوا يعطون صورة ممتازة عن اسرائيل. غير ان ذلك ما كان ليغيّر المفهوم السائد لدى مسلمي الشرق جميعاً، الذين يعتبرون الدولة العبرية اساساً لكل بلاء وعلة، وذلك منذ حزيران ١٩٦٧، أي ما سمي بحرب الأيام الستة. فاليهود، الذين غالباً ما احتقرهم المسلمون، صاروا يشعرون العرب بتفوقهم العسكري والتقني. فبدوا وكأنهم مستعمِرون جدد، اذ رأى العرب في هذا التفوق العسكري تذكيراً بالنير الفرنسي أو الانكليزي. وهذه المذلة لم تنحصر في العرب بل انها شملت المسلمين، وبخاصة الشيعة، الذين تآخوا مع المنهزمين. فاعتنقوا كلام جورج حبش القائل إن قيام الكيان الصهيوني صفعة يتلقاها المسلم كل يوم. وهذا الكيان الذي اصبح رمزاً لنكسة الاسلام، جعل منه الشاه حليفاً.

- اني ما زلت مؤمناً بأن الشاه لو دعم القضية الفلسطينية بدلاً من تحالفه مع الصهيونية، لما هوى، ولا تزعزع عرشه.

من هنا، منطلق العلاقة بين الخميني ومنظمة التحرير الفلسطينية، التي ترقى الى ما قبل سنة ١٩٦٧.

يوم كان في النجف، لم يكن الخميني قد توصل بعد الى هذه المرحلة التي اصبحت نظاماً سياسياً. كان رجل دين يطلق الأفكار والشعارات، بعيداً عن السلاح والقتال. لكن تصلبه اتى فيما بعد، اثر نكسة ١٩٦٧. ابو جهاد، نائب القائد العام للقوات المسلحة الفلسطينية، زاره سنة ١٩٦٨ في النجف. زعيم

العراق آنذاك، الرئيس احمد حسن البكر، كان مؤيداً كبيراً لمنظمة التحرير الفلسطينية. وقد فهمت المنظمة آنذاك ان الدول العربية عاجزة عن هزم اسرائيل بالوسائل الحربية الكلاسيكية، وأنه لا بد من اللجوء الى وسائل أخرى اقتصادية أو سياسية، أو حتى ارهابية. في هذا الاطار لا يجوز الاستخفاف بأي حليف. فمنذ سنة ١٩٦٩ بدأت علاقة متينة ومستمرة بين الخميني والفلسطينيين، بواسطة الفلسطيني ابرهيم يزدي. وفي عهد القذافي استطاع الايراني صادق قطب زاده اعطاء قوات الخميني هيكلية قوية، فنال قطب زاده جواز سفر سورياً بواسطة الامام موسى الصدر، الايراني الأصل، وأحد رجال الخميني. فراح يزود المقاومة الشيعية ضد الشاه بالمال. وحاولت الحركة القيام بعمليات عنف لكنها كانت صغيرة. غير ان العجلة كانت قد انطلقت. ودرّب ابو جهاد آلاف الايرانيين في مخيمات لبنان وسوريا. اما مصطفى شفران، وهو ايضاً من مقربي الخميني، فعني بتدريب الطلاب الايرانيين وبتوجيههم نحو الدعاية والارهاب.

كثيرون من الايرانيين الذين تدربوا في مخيمات منظمة التحرير الفلسطينية - ومعظمهم شيعة - قتلوا على الجبهة السورية ابان حرب سنة ١٩٧٣. اما الذين نجوا، فقد ألِفوا النار، وتقنيات القتال، فشكلوا قلب المقاومة الخمينية. خريجو هذه «المدرسة» الفلسطينية لا يخشون السافاك كما يخشاها السياسيون التقليديون. فالمقاتلون الجدد يؤثرون الانتحار بدلاً من الوقوع بين ايدي رجال السافاك. ومنظمة التحرير الفلسطينية التي اصبحت اكبر قوة ثورية عسكرية في المنطقة، ستصبح بالنسبة الى رجال الخميني نوعاً من مثل اعلى. فأسس ثوار الثورة الايرانية وضعت على منوالها. ويوم زار ياسر عرفات الخميني سنة ١٩٧٩، ذكّره بالدور الفعال الذي اداه الفلسطينيون في قلب هذه الأقلية التي اطاحت بالشاه. فالشاه لم يكن موضع حقد وكراهية بسبب ديمقراطيته، كما ظن بعض المراقبين السطحيين في اميركا وأوروبا، انما لأنه تحالف مع اسرائيل. اغتيال انور السادات كان للسبب عينه! فالتحالف مع الولايات المتحدة كان يعتبر نوعاً من الخطأ الفادح. اما التقارب من الدولة العبرية فجريمة لا تغتفر. السادات مثلاً، بالرغم من انتصاره الجزئي في العام ٧٣، اصبح منبوذاً وموبوءاً لأنه زار القدس.

علاقات الشاه بالسادات كانت ممتازة، وكان يفضله على عبد الناصر ويرى فيه السياسي المرن الذي يسعى الى انتشال بلاده من غياهب البؤس والتخلف. هذا سبب من الأسباب التي حملته على وضع طيرانه في خدمة الطيران المصري سنة ١٩٧٣. وهي المرة الوحيدة التي ابدى فيها الشاه عداء ملموساً لاسرائيل. غير ان تل ابيب لم تحقد على الشاه، خصوصاً ان طائراته لم تكن تحارب تحت الراية الايرانية. فالاسرائيليون، المفطورون على المكر الشرقي، لم يغيروا مجرى سياستهم، ولاسيما انهم كانوا يعرفون دعم الشاه لسياسة التقارب بينهم وبين السادات. وكانوا حريصين ايضاً على عدم اثارة مزيد من البلبلة في ايران، وعلى خلق متاعب جديدة لنظام طهران. بل هم الذين اخطروا الشاه ولفتوا انتباهه الى تقلبات سياسة كارتر، منذ اواخر سنة ١٩٧٦. غير ان الامبراطور الايراني كان قد وقّع حلفاً مع الشيطان. ورجال الخميني كانوا يقولون انه دمية بين ايدي الاسرائيليين.

***

سنعود الى هذا الموضوع لأنه طالما ظل مهملاً، يتناساه المراقبون أو يجهلونه. فالشاه المتحالف مع اليهود اصبح خصم اعداء اليهود. وفي النهاية لو ظلت الأمور بسيطة وحتى لو سارت على احسن ما يرام، لما استطاع الشاه تفادي الثورة، وذلك بسبب سياسته الخارجية الخاطئة. هناك امر حتمي وهو ان الصداقة التي كان يبديها الشاه لاسرائيل، اعتبرت نوعاً من تحدٍ. فكانت تسيء الى مشاعر جاريه العراق والسعودية اللذين كانا يتألمان من الانتصارات العسكرية الاسرائيلية. والشاه في تصرفه هذا، انما كان يظهر اختلافه عن العرب ويبدو في وجهه الفارسي الصرف ذي الحلة الأعجمية. ومثل أتراك انقره، كان يأبى ان يعتبر عربياً. اخيراً كان يبدي نوعاً من ميل حقيقي بالنسبة الى اليهود. فقد عرف يهوداً بين مقربيه، ولمس لديهم حِسّاً وذكاءً يميزانهم عن باقي الأوروبيين. فالشاه كان مثلاً يقدر كسينجر لأنه اكثر ذكاءً من الاميركيين الآخرين.

كان يعتبر، كما أسرّ به الى السادات، ان دولة اسرائيل أمست بالنسبة الى العرب حاجزاً يطول على الجميع بفضل تفوق اليهود تقنياً وادارةً، وبفضل استماتة اليهود في القتال. اما الدعم المالي الاميركي فيأتي في المرتبة الثالثة. اخيراً، إن الشاه الذي كان يود ان يرقى بسلالته الى خمسة وعشرين قرناً، لم يكن يستغرب استشهاد اليهود بالتوراة لتبرير مطامعهم، وهي الحجة القائلة ان العرب كانوا في البدء فاتحين. هنا نفهم بسهولة ان مثل هذا الموقف الذي يتميز بالتحدي والاستفزاز، رأى فيه مسلمو الشرق السنيون والشيعة، العرب وغير العرب، طعنة في الصميم.

***

علاقات الشاه واسرائيل ترقى الى سنة ١٩٥٠، يوم اعترفت طهران مؤقتاً ولكن فعلياً بالدولة العبرية. وهذا الاعتراف أدى الى ارسال قائمَين بالأعمال الى كلٍ من طهران وتل ابيب، لا يتحليان بالصفات الدبلوماسية الحقيقية. لم يكونا مثلاً يتمتعان بامتيازات «حصانة الاقامة». والشاه الحريص على اسس البروتوكول كان يستقبل سراً المندوب الاسرائيلي (هذا لقبه) وهكذا كان يجتنب مثلاً ان يتلاقى الاسرائيلي مع دبلوماسيي العراق او سوريا في الاحتفالات الرسمية. لكن كان يعامله باحترام صادق بل كانت تروق له مخالطته.

هذه المرحلة من العلاقات الايرانية الاسرائيلية ـ وهي الأولى ـ انقطعت سنة ١٩٥٢، يوم تسلم الدكتور مصدق رئاسة الحكومة. فما ان وصل مصدق الى الحكم حتى ابعد القائم بالأعمال الاسرائيلي وأوقف صدور جريدة «سينا»، صوت الحركة الصهيونية في طهران. فمصدق الذي كان يدعمه الحزب الشيوعي (توده) حيث العديد من المناضلين اليهود الايرانيين لم يكن يخفي كرهه لليهود. وهذا قد يفسر نوعاً ما مساعي الولايات المتحدة ـ حيث اليهود نافذون ـ لاسقاطه.

وأعيدت العلاقات بين ايران واسرائيل سنة ١٩٥٤ وتدعمت سنة ١٩٦٠

يوم جدد الشاه اعترافه الواقعي De facto بالدولة العبرية التي صار لها سفارة حقيقية سميت مكتباً تجارياً. وكان هذا المكتب مجمعاً ضخماً للخدمات يفوق بكثير السفارات العربية اهمية. وحدها سفارات المانيا وبريطانيا والولايات المتحدة كانت تفوق «الوكالة» الاسرائيلية عدداً وتأثيراً.

داخلياً، كان الشاه يحمي اليهود من كل اضطهاد أو ظلم ولا يعارض نشاطاتهم الاقتصادية. وقد نشأ تعاون اقتصادي حقيقي بين الأوساط اليهودية الايرانية والاميركية التي تجمعها الألفة والتقارب وسواهما. وقد اتخذت العلاقات الاسرائيلية الايرانية حجماً كبيراً عندما استعان الشاه بخبراء من اسرائيل لري المناطق القاحلة.

وهكذا رعت اسرائيل مشاريع عديدة في ايران كانت أهمها في منطقة قزوين. فتل ابيب التي وعَت اهمية علاقاتها مع طهران، حرصت على دغدغة الشاه، وفرضت على صحفها أن تتلهى بالكتابة عما يجري في افريقيا، وتنسى ايران. لأن اسرائيل التي كانت تشعر بعمق التقلبات التي تعصف بالعالم العربي لم تكن تود المساس بحليف في مثل هذا الشأن. حتى ان الموساد (المخابرات الاسرائيلية) الذي شعر بالروابط الناشئة بين منظمة التحرير الفلسطينية والامام الخميني ذهب سنة ١٩٧٦ الى النصح للشاه بالحد من روابطه مع اميركا واسرائيل. وارتأى نيكسون وكسينجر ان يجري انفتاح دبلوماسي ايراني جديد على عمّان والقاهرة. فضيحة واترغيت (Watergate) ووصول جيرالد فورد الى البيت الأبيض حالا دون أن يتم ذلك.

كان المكتب التجاري الاسرائيلي يضم ستين موظفاً، أي في الواقع ستين مسؤولاً عن مهمته، لأن الأشغال الصغيرة كان يقوم بها موظفون ايرانيون. وكما السفارات الكلاسيكية، كان المكتب الاسرائيلي يضم اقساماً سياسية وتجارية وثقافية وعسكرية. كان يصدر منشورة اسبوعية ذات شأن في الأوساط السياسية والتجارية في طهران. كان اذاً سفارة بالمعنى الأكمل ولا تنقصه الا المظاهر الخارجية. بل انه كان اكثر فاعلية، اذ كان يتلقى تعليماته من الموساد؛ لا شك

ان هذا المكتب قام بدور اساسي في تطوير العلاقات التجارية والاقتصادية بين البلدين. وقد نمت هذه العلاقات نمواً كبيراً بحيث ان ايران اصبحت الدولة الوحيدة ذات الشأن في المنطقة التي تتعامل مع اسرائيل.

كانت طهران تزود تل ابيب بسبعين بالمئة من حاجتها النفطية. وكان البترول يمر عبر شركات غربية، غير ان ناقلات النفط كانت في عرض البحر تغير اتجاهها، وتبحر نحو مرفأ حيفا. وهكذا فان اسرائيل كانت تشتري النفط الايراني دون ان تسجل الصفقات في سجلات الشركات أو في دفاتر السفن. اما الايرانيون فكانوا خير زبائن لاسرائيل التي تزودهم بالمكننة الالكترونية الدقيقة، وبالأدوية والفاكهة والحمضيات والخضار والمعلبات، بحيث امسى الميزان التجاري بين البلدين مائلاً لصالح اسرائيل. الفارق في الميزان التجاري لسنة ١٩٧٧ وحدها ادركت سبعين مليون دولار. وهنا نفهم قلق تل ابيب ساعة شعرت بسقوط حليف كالشاه، لأن اسرائيل، على مر السنين، طورت علاقاتها التجارية مع الايرانيين واستطاعت احياناً ان تستولي على اسواق كانت عادة، حصة اميركا.

التعاون التجاري كانت له بالطبع تبعات عسكرية. هكذا فان قسماً كبيراً من البترول الذي اشترته اسرائيل سنتي ٧٦ و٧٧، دفعت مقابله ٣٠٠ صاروخ سايدوندر، وألفي مدفع هاون من مختلف العيارات، ومئة مدفع ١٠٦م م، ذات عدسات منيرة، وألف جهاز لاسلكي، وثماني طائرات صغيرة من نوع اومودور تستطيع نقل عشرة اشخاص أو كمية عتاد للقوات المجوقلة. وكل هذا السلاح والعتاد اسرائيلي، استعمله اليهود في حرب ١٩٧٣، وقد رأى فيه الشاه خير نفع للجيش الايراني.

التعاون العسكري الايراني الاسرائيلي أدرك أوجَه على صعيد سلاح الجو. فالطيارون الايرانيون كانوا يؤثرون ان يتلقوا التدريب في اسرائيل بدلاً من كليفورنيا. والشاه كان غالباً ما يوفدهم الى الدولة العبرية حيث يراقب دراستهم ونشاطهم عن كثب. بالاضافة الى التدريب العسكري الجوي، تعاون الايرانيون

مع الاسرائيليين في حقل المخابرات. وسنة ١٩٧٣، كلفت بعثة عسكرية اسرائيلية بتدريب الضفادع البشرية في طهران. هنا يبدو مدى التعاطف بين الشاه والدولة العبرية. وقد فاق بكثير حدّ التعاطف العادي وعلاقات حسن الجوار.

فاليهود الستون الفاً الذين يعيشون في طهران كان لهم ممثل في البرلمان هو لطف الله ألكانيان. أما رجال الأعمال اليهود فكانوا يمسكون بتجارة القطع النقدية والسجاد والمواد الكيمائية. غير ان الشاه كان يقصيهم عن الادارات العامة، باستثناء الصحة. مستشفى تنلا مثلاً حيث الأطباء وكبار الجراحين يهود كان من اكبر مستشفيات المنطقة وأشهرها. والمنظمة الصهيونية ارت (ORT) كانت تجمع تبرعات ضخمة في ايران لاسرائيل، مما يفسر المخاوف التي ابدتها تل ابيب ابان التحركات التي زعزعت اسرائيل. فالمخابرات الاسرائيلية (موساد) اخطرت الشاه منذ سنة ١٩٧٦ بتأثير الخميني في الجماهير، ولفتت نظره الى المخاطر الناجمة عن دعوة الامام الى تفكك الجيش. وهكذا لفت الاسرائيليون انظار الشاه الى العلاقات المستمرة بين انصار الخميني ومنظمة التحرير الفلسطينية، وكذلك الى التحركات الطلابية. ولكن الشاه النشوان من عظمة كان يرد هذه التنبيهات والتحذيرات الى سخط الاسرائيليين إزاء علاقاته المتحسنة مع الدول العربية، وبخاصة بعد سنة ١٩٧٥.

الاسرائيليون، على ازعاجاتهم، أمسوا حلفاء حقيقيين للشاه. فالدولة العبرية لم تتوانَ في دعم الامبراطور الفارسي غير انها، بعد شعورها بفقدانه عطف الرأي العام في اميركا وأوروبا، حدّت من تعاطفها الكبير نحوه مدخرة سلاحها لنفسها. ولا بد من الاشارة هنا الى الدور الآخر الذي قام به الاسرائيليون في ايران. فايران، كما ذكرنا، خير سوق محلية للانتاج الاسرائيلي. ولا بد من دغدغة حكامها أياً كانوا. وبخاصة ان الخميني كان زعيم جبهة جديدة قوية، واسرائيل لا تنفك ترى العراق كما سوريا في رأس اعدائها.

وازاء اخطار الفورة الخمينية الصاعدة، لم يكن يغيب عن تل ابيب خطر نظام صدام حسين عسكرياً. ناهيك بطموحات بغداد في الحقل النووي. ولا بد

هنا من التذكير بمبدأ سياسي قديم قائم بوجوب التفرقة للسيطرة. فاسرائيل راهنت على حرب تدوم دهراً وتتلاشى فيها قوى العراق وايران جميعاً. وبينما العراق وايران يتحاربان، والعالم العربي منقسم على نفسه متسارعاً للوراء، الدولة العبرية تواصل سيرها نحو التقدم.

ولا عجب في هذه الحال ان تكون علاقات الشاه وجيرانه العرب سيئة. مما يفسر تعاطف بعض الجهات العربية مع كلام الخميني القائل بأن اميركا شيطان اكبر، واسرائيل شيطان آخر. فالمسلمون العرب كانوا ينظرون الى حليف الشيطانين، سليل قورش، كأنه شيطان ايضاً.

موقف الشاه من العالم العربي بدأ يتغير إثر وصول انور السادات الى الرئاسة. وكان الشاه قد التقى السادات مرتين، في باريس ولندن، سنتي ٦٣ و٦٤. فتبين له ان الرجل ملم بالشؤون المالية والاقتصادية، وكانا متشابهين. السادات كان متواضعاً والشاه كان خجولاً متستراً وراء مظاهر العظمة. فأعجب بلطف السادات. كانا غالباً ما يجريان اتصالات هاتفية، وقد تسنى للشاه ان يتتبع المسيرة الأولى التي ادت الى توقيع معاهدة كمب دافيد. صحيح ان دوره في هذه الاتفاقات لم يكن رئيسياً اذ الفضل الأول فيها عائد الى كسينجر. غير ان الشاه كان يصغي لوشوشات غولدا مئير التي طالما حلمت في ايجاد صيغة تفاهم مع القاهرة. اما رابين فأصغى بتفهم الى نصيحة الشاه ابان المحادثات الصعبة الأولى التي ادت الى زيارة انور السادات للقدس. وقوام هذه النصيحة ضرورة التخلي عن الأراضي المحتلة التي تطالب بها القاهرة. ولا شك ان الشاه ساهم في التقارب بين مصر واسرائيل نظراً للثقة التي كان يحظى بها في تل ابيب.

اذاً، بدأت علاقات الشاه والدول العربية تتحسن ابتداء من سنة ١٩٧٠، اثر انتخاب انور السادات رئيساً للجمهورية. وستبدأ ايضاً مرحلة تفاهم دبلوماسي بعد اتفاق الجزائر سنة ١٩٧٥، وهو الذي أنهى خلافاً مزمناً في شأن الحدود المشتركة العراقية الايرانية.

إيران والعرب

كان من المعقول جداً ان يقيم الشاه علاقات حسن جوار على الأقل مع دول تجمعه بها رابطة الدين. ففي الواقع ساهم الفرس كثيراً في نشر الحضارة الاسلامية. كما ساهم الفلاسفة والشعراء الفارسيو الأصل في تشييد صرح الثقافة العربية الى حد يصعب على المستشرق الباحث اليوم ان يميّز بين المفكرين العرب والمفكرين الفارسيي الأصل. فالمساهمة الفارسية كبيرة في الحضارة التي نشرها الفتح العربي في افريقيا الشمالية والأندلس، وبخاصة في حقول الهندسة والري والطب. وبفضل الجيش الفارسي استطاع الاسلام ان يدخل الهند والصين. وساهم الفرس ايضاً في بناء الدولة العباسية.

الجوامع المشتركة بين العرب والفرس عديدة لا تحصى. غير أن الشاه النشوان من عظمة كان يحلو له أن يظهر الفوارق لا الجوامع. وبعض هذه الفوارق يعود الى الأصول. يروى ان الخليفة عمر بن الخطاب كان يقول: «كنت احب ان ينتصب جبل من نار بيني وبين فارس. وهكذا لا يستطيع احدنا ان يرى الآخر أو ان يطاله». فمنذ القرن السابع اذاً، كان الجو مشحوناً بين العرب والعجم. والشيعة الايرانيون ما زالوا يكرهون عمراً حتى يومنا هذا. ولم ارَ ايرانياً اسمه عمر، وذلك بعد ان تشيعت ايران في اول العهد الصفوي.

غير ان حقد الايرانيين يذهب الى ابعد من ذلك. فهم يطلقون على شاعرهم الكبير عمر الخيام اسم الخيام، وحسب. مما يدل ان الايرانيين، والشاه

في طليعتهم، غالباً ما يؤثرون الابتعاد عن العرب. فقد اصر الشاه على حصر الخليج بتسمية «الخليج الفارسي»، وكان شديد التعلق بالتعابير البروتوكولية. حتى ان العلاقات توترت بين طهران وتونس والمغرب والممالك والامارات العربية يوم قررت هذه سنة ١٩٧٤ استعمال كلمة خليج بدلاً من الخليج الفارسي. وهناك دواعي خلاف أهم بكثير. فالدعم الايراني للثورة الكردية كاد يشعل الحرب بين بغداد وطهران سنة ١٩٧٣. وكذلك العلاقات بين ايران والسعودية انقطعت في عهد الملك عبد العزيز عندما احتج العاهل السعودي على تواجد البحرية الايرانية بالقرب من شواطىء البحرين. وسنة ١٩٦٤ حصلت مناوشات حامية بين ايران وسوريا، مما ادى الى استدعاء كل دولة لسفيرها لدى عاصمة الدولة الأخرى.

في ما يتعلق بالبحرين، لا بد من الاشارة هنا الى ان الشاه طالب بضمها الى امبراطوريته زاعماً انها تاريخياً ارض ايرانية. وقد ذهب الشاه الى ابعد، اذ مثل البحرين في المجلس النيابي الايراني بنائبين. ولم تستطع الامارة ان تظل مستقلة الا بفضل الجهود المشتركة التي بذلها الملك فيصل بن عبد العزيز مع الولايات المتحدة. وفي النهاية، اجرت الأمم المتحدة استفتاء شعبياً تقرر بموجبه ان تظل البحرين دولة عربية مستقلة.

بالنسبة الى الكويت، الذي كان يزعج الشاه باستقلاليته المميزة، فقد هدد الامبراطور الايراني غير مرة بالقيام بعمل عسكري فيه مستنداً الى وجود قسم كبير من مواطنيه الايرانيي الأصل. فالشاه كان مقتنعاً كل الاقتناع بأن الخليج ربيبه. بل هو منطقة نفوذه، ومَن يتغاضى عن نعته بالفارسي يجلب لنفسه غضب الامبراطور. وفي سبيل تبيين ان الخليج هو حقاً فارسي، اقدم على احتلال جزر مضيق هرمز الثلاث: الطمب الكبرى والطمب الصغرى وأبو موسى، فور جلاء البريطانيين عنها.

وهكذا كان الشاه يُشعر العرب بقوته ونفوذه المتزايدين. فجريدة «البعث» السورية اخذت عليه غير مرة تصرفه الذي يذكر بتصرفات البريطانيين قبله.

وهذا الشعور كان ايضاً شعور معظم العواصم العربية الأخرى. ولكن، عندما تزعزع عرش الشاه، لم تبدِ اي دولة عربية شعوراً بالشماتة أو الثأر. فدول الخليج التي طالمت عانت من مطامع الشاه نظرت الى سقوطه بنوع من مرارة، اذ الحكمة تغلبت لديها على الغيظ، وذلك عملاً بحديث قدسي يقول: «من كظم غيظاً، وهو قادر على أنفاذه، ألبسه الله تاج الكرامة يوم القيامة». ولم يهلل لانتصار الخميني الّا سوريا والفلسطينيون في بيروت. اما في كل مكان آخر، حتى في البحرين، فقد سيطر نوع من التخوف. فهذه الدول العربية التي كان ينظر اليها الشاه بشيء من تعالٍ، تطلعت الى الشاه المخلوع بنظرة من عطف لم يجد مثيلة لها في واشنطن وباريس. فمصر استقبلته بحرارة، والمغرب كرّمه، في حين رئاسة الجمهورية الفرنسية اعلنت انه غير مرغوب به في فرنسا، وجيمي كارتر رفض تزويده بجواز سفر. فلا بد اذاً من الاشارة هنا الى انه في الساعات الصعبة لاقى امبراطور ايران السابق لدى جيرانه الذين اساء التعامل معهم تفهماً فاق عطف حلفائه الذين وضع فيهم سابقاً كل ثقته وكيفما اتفق.

ولو رجعنا الى اساس الخلاف بين ايران والدول العربية لوجدنا ان المسألة عائدة بشكل غير معقول وغير منطقي الى نوع من صراع كلامي، صراع ألفاظ. ففوق مسألة حدود شط العرب وفوق مشكلة البحرين وأهم من ثورة الأكراد، كانت هناك تسمية الخليج التي صبّ الشاه عليها كل اهتمامه واعتبرها مسألة شرف. فما ان كانت دولة عربية تستعمل تسمية «خليج عربي»، كان الشاه يسحب سفراءه. هكذا قطع علاقاته مع تونس والمغرب اثر الزيارة التي قام بها لهما الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان وقد جاء في البيان الختامي للزيارة الخليج العربي بدلاً من الخليج الفارسي. فهذا الخلاف في التسمية كان كافياً لتلبيد الأجواء بين الشاه والعرب. واليوم ايضاً، الخميني عينه لا يستطيع مجابهة الموضوع دون اثارة حساسية الايرانيين. وقد اعتبر آية الله انه وجد الحل في استعماله تعبير «الخليج الاسلامي».

هو صراع حضارتين. تماماً كما كان بالنسبة الى روما وقرطاجة. فالايرانيون الذين جابوا مياه الخليج وعبروا تخومه منذ عشرين قرناً، اعتبروه مُلكاً لهم. ولكن

اذا كانت المسألة مسألة شواطىء تقاس طولاً وعرضاً، فحريّ بالخليج ان يكون عربياً اكثر منه فارسياً. هناك حل وسط وجده الدبلوماسيون والصحافيون الذين حرصوا على عدم اثارة غيظ أيّ من الفريقين، فلجأوا الى التسمية السريعة والمقتضبة واكتفوا بكلمة «الخليج» تسمية للمنطقة.

ولكن الموضوع ليس مسألة كلام فارغ، انما هو أمر اتجاه وتصوُّر. فكما ان اوروبا الوسطى اصبحت اوروبا الشرقية فان تحوّل الخليج الفارسي الى الخليج العربي او الاسلامي سيكون له مدلول محدد. لأن القول بالخليج الفارسي كان يعني ان الايرانيين يستأثرون ولو من بعيد بهذا الجزء من العالم في حين كلمة الخليج العربي رسخت مع تطور نفوذ الدول العربية، وتطور شأنها. وهكذا ففي اولى سنوات العهد الناصري، كان العرب يتكلمون ببساطة عن الخليج الفارسي. وجمال عبد الناصر عينه في خطابه الشهير الداعي الى الوحدة العربية، تحدث عن الأمة العربية من المحيط الأطلسي الى الخليج الفارسي. ثم بدأت تظهر تسمية الخليج العربي بشكل رسمي ودون اي تخوف عندما بدأ امراء المنطقة يعون شأنهم السياسي. يقال ان رجل الأعمال اللبناني اميل البستاني هو اول من جرؤ على استعمال تسمية الخليج العربي في الصحف ايام كان عبد الناصر نفسه غير مهتم بذلك.

وكانت بين الشاه والعرب اسباب خلاف اخرى اقل ظهوراً وأكثر عمقاً. كان يخشى تطور التسلح في المملكة العربية السعودية، إذ يرى في المملكة منافساً له على زعامة المنطقة. كان ينزعج من لامبالاة الأمراء إزاءه ويود ارغامهم على اتباع سياسته والسير في ركابه مقابل تقديمه لهم حماية عسكرية. لكن همه الأكبر وانشغاله المستمر ومبعث تخوفه ظلت العراق. العراق، خصم ايران التاريخي وعدوها الوراثي، بل مركز الاضطرابات والثورات. كان يخشى الشاه ان يتحول العراق الى ترسانة، فكان يتتبع التطورات السياسية فيه باهتمام كبير.

ولقد تسنّى لي شخصياً ان اختلط في بعض المسألة العراقية وان اقترب منها، على الشكل التالي:

في تموز/يوليو من سنة ١٩٥٨، وقبل اسبوع من سقوط النظام الملكي في العراق، استدعاني رئيس السافاك الجنرال تيمور بختيار ليكلفني بمهمة فريدة.

قال: ستسافر غداً الى اسطنبول حيث ينتظرك في المطار من يوصلك الى اليخت حيث يمضي الأمير عبدالله، ولي عهد المملكة العراقية، عطلته. وستبلغه الرسالة التالية: «اياك والعودة الى بغداد. بل إسعَ الى دعوة الملك فيصل (الثاني) للحاق بك في اقرب وقت ممكن، الى هنا، أو الى اي مكان آخر، بعيداً عن بغداد»، وأعلمني بختيار بأن هناك انقلاباً يُعد في بغداد لقلب الحكم العراقي. طلبت منه مزيداً من التفاصيل ليتسنى لي الرد على الأمير عبدالله في حال طرحه عليّ اسئلة واستفساراً فأجابني ان ليس لديه المزيد من المعلومات. وأضاف: «لا اعرف الجهة المتآمرة على الملك لكنني متأكد من ان شيئاً ما يحاك ضده. ومصادري موثوق بها. فأنا اكلفك بهذه المهمة لأسباب محض انسانية تتعلق بحياة الملك فيصل. فهذه القضية لا تدخل مباشرة في اطار حلف بغداد، انها عراقية داخلية ولا تأثير لها مباشر على العلاقات العراقية الايرانية. فبالنسبة الينا، هي خارج حدود علاقاتنا الدولية». سألت بختيار: هل انقل الرسالة باسمك أو باسم جلالة الشاه؟ فأجابني: باسمي! وسألته ايضاً لماذا لا يوكل هذه المهمة لسفير ايران في تركيا أو لسفيرها في العراق. غير انه لم يكن يؤمن بالأقنية الدبلوماسية، فقال لي ان هذه المعلومات تسربت اليه بالسرية التامة. ولم يكن يود ان يتخذ هذا التنبيه طابعاً رسمياً، ولا ان يتسرب الى الجميع.

التسرّع الذي رافق مهمتي كان يدل بوضوح على مدى التأثر الذي يبديه الايرانيون ازاء اي تبدل في السياسة العراقية. وقد لمست لدى الجنرال بختيار مدى تخوف الشاه من انزلاق العراق الى الناصرية.

لا شك ان العلاقات بين الشاه والملك فيصل الثاني لم تكن دائماً صافية وقد سادها التوتر غير مرة. لكن الشاه، كما تبين لي، ما كان ليرضى بسقوط العرش في بغداد. فزعماء الخليج انداده، وكان يتناسى خلافاته معهم ساعة يشعر بالخطر عليهم. وأيقنت ان بختيار عندما اوفدني الى اسطنبول انما تصرّف بايعاز من الشاه أو على الأقل بالاتفاق معه.

سافرت الى تركيا في اليوم التالي.

كان في استقبالي في المطار احد موظفي قنصلية ايران. فتوجهنا الى اليخت حوالى الساعة الحادية عشرة والحر يكاد لا يطاق. كان الأمير عبدالله قاعداً في مقدمة اليخت وقد ارتدى ألبسة بيضاً. كان بمفرده، وكأنه في حال سأم. عندما رآني ايقن اني حامل اليه نبأ هاماً ولذلك اختصر مراسم البروتوكول. سألني بشيء من عجلة: ما وراءك يا نذير؟ اجبت اني سأعرض عليه الأمر في ما بعد. لأني كنت اود ان لا اتكلم بحضور موظف القنصلية. وبعد ذلك شكرت الموظف وصرفته. ثم عرضت على الأمير رسالة بختيار. فأتت ردة الفعل سريعة وقد امتازت بنوع من غضب، اذ صاح: أف لبختيار. ليُعنَ الايرانيون بشؤونهم بدلاً من الاهتمام بشؤون الغير. ليعنوا بجيشهم بدلاً من تلقيننا الدروس والنصائح. اما انا فركزت على ما جاء في الرسالة وقلت:

- يا سمو الأمير، لا تقلل من شأن ما انقله اليك. فالجنرال بختيار لا يتكلم بخفة. وهو الى ذلك يكن لك عاطفة صحيحة. لهذا السبب اوفدني اليك، وهو لا ينسى انك من السلالة الكريمة، سلالة اهل البيت.

عند سماعه هذا الكلام، ابتسم عبدالاله بمرارة وقال: نحن اهل البيت مكتوب لنا الشهادة، ولا نموت الا قتلاً.

حاولت التخفيف عنه فقلت: هذا كلام يا مولاي، بل أحاديث خرافية.
قال: بل هي الحقيقة. فالهاشميون يموتون شهداء.

أثناء الغداء الذي دعاني اليه رجوته ان لا يعود الى بغداد وأن يعلم الملك فيصل بما نقلته اليه. فرفض رفضاً قاطعاً. ولما لم استطع اقناعه، استأذنته مودعاً، وكانت الساعة حوالى الثانية والنصف بعد الظهر. وكان يبدو حزيناً مغموماً.

فور عودتي الى طهران، في اليوم التالي، نقلت الى بختيار نتيجة مهمتي. فصعق من تصلب الأمير. وأيقن انه مشرف على نهايته، كما الملك فيصل.

مرّ الليل دون ان استطيع نوماً. وعند الفجر، صعقت عندما سمعت اذاعة بغداد تعلن: «هنا محطة اذاعة الجمهورية العراقية». الجمهورية العراقية! اذاً، قضي الأمر. فأسرعت للاتصال بالجنرال بختيار. وكانت الساعة السادسة صباحاً:

- اظن ان الذي خشيته قد حصل، وان هناك انقلاباً في العراق.

لأول وهلة، بدا وكأنه لم يصدق فاستفسر مرة جديدة. ثم انه طلب مني ان اتتبع الأخبار وأن انقل اليه جديدها. وقال انه سيعلم الشاه فوراً بما حصل.

***

هذه اول مهمة كلفت بها مع العراقيين. وقد طُلب اليّ في ما بعد ان اتتبع باهتمام تطورات السياسة العراقية وتبعاتها بالنسبة الى ايران. فمنذ ذلك اليوم اصبح الحكم الايراني شديد الحذر بالنسبة الى بغداد. ولاسيما ان خطر تصدير الثورة العراقية الى ايران كان حقيقياً. فصار الشاه يبحث باستمرار عن وسائل للضغط على الحكومة العراقية. وهكذا، سعت طهران من سنة ١٩٦٠ الى مساعدة الأكراد العراقيين ومدهم بالأسلحة. وكانت الثورة الكردية موضع اهتمام كبير في بغداد. فقد شارك الأكراد في غير حركة انقلابية عصفت بالبلاد، حتى انتصار حزب البعث وتسلم الفريق احمد حسن البكر مقاليد السلطة.

الشاه ساعد اذاً الأكراد في تمردهم، وكان ذلك بايعاز من واشنطن التي لم تكن ترى بعين الرضا انزلاق بغداد باتجاه موسكو. فبعد معاهدة ١٩٧٠ حيث اعطتهم بغداد شيئاً من استقلال ذاتي، عادوا الى المقاومة. ولطهران ايضاً يد في الانقلابين الفاشلين اللذين حصلا في العراق سنتي ١٩٦٩ و١٩٧٣. ولعل خير اداة في يد الشاه لاغاظة بغداد، الأكراد!

هذه السياسة ادت الى نيل طهران مكاسب حقيقية. فمنذ سنة ١٩٧٤،

اي مع عودة القتال الى الكردستان، حاولت الحكومة العراقية التقرب من ايران وقبلت بتنازلات. وقد استقر الاتفاق على تصحيح خط الحدود في شط العرب لمصلحة ايران. مقابل ذلك، تخلى الشاه عن الأكراد. فهزموا.

***

عوْد الى بدء.

قبل العام ١٨٧٤، كانت الحدود بين بلاد فارس والعراق ـ وهي يومها جزء من الدولة العثمانية ـ تتضمن رقعة واسعة من الأرض تقع شرقي شط العرب وغربيه ـ الحدود الحقيقية بين الدولتين يكوّنها في الواقع مجرى نهر بهشمير. وهي اراضٍ ذات اهمية اذ تقدر بحوالى مئة كيلومتر مربع. اتفاق ارزروم سنة ١٩٧٤ اعطى هذه الأرض للقبائل المقيمة فيها، اي لمصلحة الامبراطورية الفارسية وعلى حساب العراق. فهكذا انتقلت عبدان ـ وهي يومها قصبة ـ من الأراضي العراقية الى الأراضي الايرانية. وحددت حدود العراق على ضفة شط العرب الشرقية. ومن محاسن ذلك انه كان يستطيع اقامة مراكز لجيشه تحسباً لأي هجوم. غير ان سلالة خدبار ما كانت لترضى بهذا المكسب، مهما كبر. وراحت تطالب بمكاسب اخرى. ولذلك استفادت من ضعف السلطنة العثمانية المتداعية وجرّت السلطان الى القبول باتفاق استانبول سنة ١٩١٣. فجزيرة محلة التي كان يحيط بها شطرا شط العرب اصبحت الآن في قبضة الفرس. والحدود بين الدولتين لم تعد الضفة الأخرى انما امست تعبر وسط النهر.

استقلال العراق في العام ١٩٣٢ لم يغير شيئاً. وايران القوية بجيوشها احرزت مغانم جديدة باستيلائها على جزيرة القصاصيف في وسط النهر وعند توقيع اتفاق سنة ١٩٣٧، لم تنسحب ايران من الجزيرة بالرغم من الضغوط البريطانية. وقبلت بمقاسمة الجزيرة وباعادة نصف ما اخذت. وللعراق في بعض الأماكن قسم ضئيل في ضفة النهر الأخرى.

هذا اذاً باختصار اساس الخلاف الذي سعت الجزائر، برئاسة هواري بومدين، بوساطتها الخيرة الى حسمه سنة ١٩٧٥. فقد اعادت ايران جزيرة القصاصيف للعراق، ومقابل ذلك تخلت بغداد عن الأراضي المتناثرة في ضفة النهر الأخرى. وقد نجح الشاه يومها بتسديد ضربة معلّم. حتى ذلك الحين كان وحدهم الغربيون يكفلون حدوده، اما الآن فها هي دولة عربية توقع في ذيل المعاهدة: الجزائر.

***

كل ذلك في الواقع لا يعطي صورة مغرية عن الشاه. اذ يبدو خسيساً طماعاً، ساعياً الى مغانم جديدة. ولكن لا بد من الاعتراف بأن الصراعات العراقية الايرانية ترقى الى قرون عديدة. واليوم، اذا كنت اشعر ببعض الاعتزاز بالنسبة الى الذي قمت به، فقد كان بسبب تعاملي مع فريق المعتدلين بزعامة هويدا، لا بزعامة الشاه. صحيح ان اتفاق الجزائر الذي عملت في سبيل احيائه لم يكن عنوان العدل، ذلك ان بغداد لم تستعد بموجبه الا قسطاً صغيراً من ارضها السليب، ولكن الاتفاق كان يضع حداً لخصومة مستمرة بين الدولتين. ولا شيء في رأيي اهم يومها من تجنب صراع بين ايران ودولة عربية.

***

اقمت في ايران اثنتين وعشرين سنة فأمست لي وطناً آخر. ولكني في المهمات الموكلة اليّ لم اعتنق يوماً الموقف الايراني الصرف. وكنت دائماً اتصرف كعربي، عربي بكل احاسيسه وحساسياته. وجذوري، الشبيهة بجذور اي عربي آخر، اتاحت لي ان اقيم علاقات مميزة مع الذين احاورهم. والشاه الذي كان لبقاً الى اقصى حد كان يعرف ان هذا النوع من العلاقات يصعب على دبلوماسيين ويطول. وكان يثق بي.

كنت اعي الأمور بما فيه الكفاية لأستطيع التأكيد لمن التقيهم في الشرق أو في افريقيا الشمالية إن نظام الشاه شر لا بد منه. ففي المرحلة الانتقالية التي يمر بها العالم العربي لا شيء اخطر على مستقبل العروبة من الانزلاق نحو الماركسية. اقولها بكل أمانة وضمير: ان السبب الأول الذي كان يدفعني الى الوقوف الى جانب الشاه هو انه يشكل حاجزاً منيعاً وحداً فاصلاً بين العرب والسوفياتيين. لأنه لا بد للعالم العربي ان يظل متعلقاً بجذوره راسخاً في حضارته ليستطيع النجاح في هذا التطور العميق الذي تتعلق به صيرورته. وقبل ان يكونوا مسلمين، أوليس العرب ابناء للشرق، تراثه وعاداته وتقاليده؟ الهوية العربية لا تستوجب ابداً الانتماء الى الاسلام. فهناك اسر روحية مسيحية تؤم غير دولة عربية ابتداء بمصر وسوريا والأردن وانتهاء بلبنان. وهؤلاء المسيحيون عرب قبل الاسلام فيما الاندونيسيون ـ وهم مسلمون ـ ليسوا عرباً. وكذلك الباكستانيون يكوّنون هوية مختلفة عن تلك التي نراها بين اغادير والرياض. هذا هو الواقع. هناك ارث ثقافي يأتي عبر التاريخ واللغة. الهوية العربية تبدأ باللسان العربي وهي الى ذلك ايضاً، على ما اعتقد، مصير واحد وعيش مشترك[١].

هنا، لا بد من الاشارة الى ان الفلاسفة والمفكرين العرب الذين يعتبرهم الغرب قمماً بحد ذاتها كانوا يعيشون وسط الشعب، محاطين بالتلامذة وبعائلات كبرى. وعبثاً نسعى الى ايجاد بين مفكري العرب وجوه وحيدة، وأفراد منعزلة كما هو نيتشه مثلاً في الغرب. وهذا ما يميز المفكرين العرب اذ جميعهم منبثق من اسرة أو مجموعة أو جماعة. وهذه الأولوية الكامنة في الجذور لا تتوافق مع التجرد السوفياتي.

مهما كان الشاه فظاً بطموحاته ومطامعه واعتداءاته، فان مثله أهلٌ لكي يدرس باهتمام وموضوعية. واليوم، اكثر من اي يوم آخر. فقبل ان يعود آية الله الخميني الى طهران كنت تجد في العاصمة الايرانية اطباء يعتبرون من خيرة النطاسيين العالميين. وفي الصيدليات كنت تجد الأدوية والعلاجات على انواعها.

(١) عن الرسول: «ليست العربية بأحدكم من اب أو أم فكل من تكلم العربية فهو عربي».

والمكتبات كانت تعرض خيرة المؤلفات وأحدثها ابتداءً بالمؤلفات الأدبية والفلسفية، وانتهاءً بالبحوث العلمية المستقبلية.

من هذا كله لم يبق شيء. وها اننا قد رجعنا قرناً الى الوراء. فالحرب التي كان يجب وقفها من زمان تودي بزهرة الشباب. وجذور التقدم التكنولوجي قد انقطعت. والشعب الذي كان يكتفي بعيش وضيع صار اليوم شبه معدم. صحيح ان هناك الحرب ولكن السوق السوداء استبدت بطهران مع استلام آيات الله السلطة. ولكن الحرب لا تبرر كل شيء. والأحكام القاسية التي اصدرت بحق الشاه غداة سقوطه امست ذا مدلول آخر.

لنعد الى العرب.

ففي كرههم للغرب المستعمِر والامبريالي والمتعالي، حاول العرب الاتجاه نحو الاتحاد السوفياتي، هذه الدولة التي تستفيد من كل وضع يشكو من الفوضى والبؤس. وشاءت موسكو ان تكون صديقة العرب. فقد ساعدتهم على التحرر. ولكن المثل الحضاري الذي عرضته عليهم عوضاً عن المثل الغربي هو اكثر استبداداً وبطشاً من استبداد المستعمِرين الغربيين. انها تخنق الفكر وتستعبد النفس. انها تقطع صلة المرء مع نفسه وتواصله الانساني مع الآخرين. بماضيه. وفي هذا المضمار هي اخطر بكثير وأفظع من الاستعمار القديم. فالحكومات الغربية تستفيد الآن في مجال الدراسات العلمية والأكاديمية. اما في الاتحاد السوفياتي فلا شيء باقٍ من الحضارة العربية باستثناء الخطب الرسمية عن صراع الطبقات، هذا الاطار القديم الذي يضعه السوفياتيون برسم جميع الشعوب الرازحة تحت نيرهم.

ففي الجمهوريات السوفياتية التي كانت مسلمة هناك هدم مستمر للحضارة القديمة. السوفياتي، اذا كان روسياً، يحتفظ بعاداته وتقاليده وتاريخه وقيمه التي هي جزء من هويته. ولكن، ما هي الحال بالنسبة الى كازخستان، وأزبكيستان وتركمنيستان؟ فاللغة الروسية تحل مكان اللغة الأم في الدراسة منذ سنوات الحضانة. والكلام قد الغي من الحياة الاجتماعية والثقافية والادارية

«وهذا المصير ينتظر العرب اذا قبلوا اليوم بالنير السوفياتي. فسيخسرون كل شخصية»[١].

هذا التفكير لا يثنيني عن التفكير في الادعاء الغربي والتعالي الغربي والطمع الغربي ناهيك بالتقلب الغربي الذي تمثل بصورة حية في شخصية جيمي كارتر. غير ان العربي يستطيع الاستمرار في الحوار مع الغربيين وقد يأتي يوم يتخلى فيه عنهم. لكن السوفياتيين يعرفون ماذا يريدون. والاتفاقات المعقودة معهم غشاشة دائماً. فمنذ سنة ١٩١٧ لم يكفوا يوماً عن اشعال الحروب بمكرهم المعهود.

كلمة اخيرة في موضوع يهمني كثيراً: قوة العرب. هذه القوة قيست حتى الآن بعدد المقاتلين وببسالتهم. فالعرب لا يهابون الموت. ولكن هل يربحون الحرب يوماً؟ هل ينجحون في صراعهم الحقيقي، هذا الصراع الذي قد يجعل منهم قوة كبرى، ما زالوا يتكلون على الصواريخ الاميركية ويقودون الطائرات الفرنسية ويستعملون البنادق السوفياتية. البطولة غير كافية لاجتياز الطريق الطويل الذي يرسم عصرنا الحديث؟ لأنه لا بد ايضاً لتقنيين ومهندسين وباحثين. فالى هؤلاء يحتاج العالم العربي. هذا هو الكلام الذي طالما رددته. وقد سمعه البعض باهتمام غير انه تسبب لي بعداءات كبرى بحيث خشيت مراراً على حياتي. ولكن، لنعد الآن الى الصراع بين العراق وايران الذي هو اساس الحرب الحالية.

***

لو تسنّى لي الأمر لكتبت في هذا الشأن اسفاراً. فكم من مرة قُدّر لي أن اجنّب قطيعة بين طهران واحدى العواصم العربية. فقد استطعت مرة بمساعدة الكويت ان اجري صلحاً بين الشاه والرئيس جمال عبد الناصر. كل شيء بدأ في خطاب ألقاه الرئيس واتهم فيه الشاه بمعاداة العرب والتحالف مع اليهود.

(١) لا حاجة للتكرار؟

واشتعلت اثر ذلك حرب اذاعات، مما دفع الشاه الى انشاء اذاعة تبث باللغة العربية مركزها في الأهواز. عندئذ دعاني سفير الكويت في طهران الى زيارة بلاده. كان ذلك في سبيل اجراء مفاوضات. وعلمت ان الشاه قد وضع فيّ كل ثقته لأن هذه المفاوضات من شأنها ان تخفف حدة التوتر بين طهران والقاهرة. غير انني اعتصمت بالحذر لأن رئيس المخابرات السورية عبد الحميد السراج كان ايام الوحدة المصرية السورية قد امر باغتيالي. ذلك لأنني قابلت الوحدة بحذر وقد تنبأت بقصر عمرها.

عندما قدّمت أول تقاريري الى طهران، نقل اليّ المسعودي، وهو عضو مجلس الشيوخ، رأي الشاه في التقرير. وكان قد جاء فيه ان الخلاف بين العاصمتين يمكن حله ببساطة، بل يكفي لذلك اعادة العلاقات الدبلوماسية. كان الشاه موافقاً على المبدأ ولكنه مصرّ، حسب الأصول الدبلوماسية، ان تكون الدولة التي باشرت في قطع العلاقات - اي مصر - هي التي تقوم بالخطوة الأولى نحو التطبيع.

وتوسطت الكويت. اما جواب القاهرة فكان يشترط اعلان بيان مشترك. وأنا اعرف الشاه، وأعرف انه لن يقبل بهذا العرض. لكن امير الكويت عرض الأمر على الشاه بشكل مرض ومطاوع لحساسيته. وهذا بنصح مني. وخفّ التوتر حدة. واتفقت العاصمتان على نص بيان مشترك.

***

سنة ١٩٦٩، رافقت الشاه والامبراطورة فرح في زيارة رسمية الى تونس. وكان الشاه يعلق اهمية كبرى على لقائه بالرئيس الحبيب بورقيبة. فهو يكنّ احتراماً كبيراً للرئيس التونسي ويقدر ذكاءه وحنكته في ارضاء الدول الغربية، مع حفاظه على سيادته التامة. فبورقيبة مثلاً يقدم للأميركيين تسهيلات دبلوماسية غير انه لم يرضَ مرة ان يقيموا في الأراضي التونسية قواعد عسكرية ثابتة. كان يبدي بعض التسامح ازاء اسرائيل، لكنه لم يتخلّ مرة عن الجبهة العربية. وكان يستفيد كثيراً

من فرنسا ويشدد على التضامن الثقافي بين البلدين. اذاً، الحبيب بورقيبة، العارف بفقر دولته التي لا تستطيع التخلي عن مساعدة اوروبا وأميركا، كان يماشي الدول الغربية دون السير في ركابها. وهذا كان يثير اعجاب الشاه.

جرت الزيارة حسب البروتوكول المرسوم وبموجب المراسم الخاصة باستقبال كبار رؤساء الدول. وكان الشاه راضياً كل الرضا عن زيارته، وقد رأى فيها تكريماً له ولشأن بلاده. غير انه في آخر يوم من زيارته بدا وكأنه ممتعض. لكنه حرص على عدم اظهار ذلك. فراح يمازح محادثيه الأمر النادر لديه. وكان يبتسم للجميع. فاستطاع ان يغش مراسلي الصحف والوكالات. لكني كنت اعرفه لأشعر بامتعاضه. وعرفت بعدئذ ان العراق كان قد قرر يومها الغاء الاتفاق حول شط العرب.

هذه القطيعة الجديدة بدت نوعاً من فشل حقيقي في وقت كان الشاه يسعى الى توطيد روابطه مع العالم العربي. وقد بدا ان العراق، باختياره هذه الفترة لنقضه اتفاق سنة ١٩٣٧، انما يوجه ضربة الى الدبلوماسية الايرانية في اوج ازدهارها.

الأسباب الموجبة التي اثارتها بغداد لم تكن في الواقع خاطئة فالبند الثالث من الاتفاق ينص على ما يلي: «فور ابرام هذا الاتفاق، يسعى الفريقان الى تشكيل لجنة مختصة، مهمتها رسم الحدود المشتركة».

غير ان اعمال اللجنة توقفت سنة ١٩٤٠ بقرار ايراني، بحجة ان البلاد تنوء تحت الاحتلال البريطاني، وانها بذلك لا تستطيع الاضطلاع بسيادتها كاملة. والسبب الآخر هو ان استقلال العراق سنة ١٩٣٧ لم يكن ناجزاً تاماً. فكما نراه اذاً، كانت هناك حجج عراقية صحيحة. اما في الجانب الايراني، فهناك خلاف بالنسبة الى منطقة ام الشير، وهي كناية عن بعض الكيلومترات المربعة. وقد استندت طهران الى مزاعم ذات طابع تاريخي تقول بأن رسم الحدود تمّ على ايدي الحكومة البريطانية، فهو بالتالي لمصلحة بغداد واذاً لخدمة المصالح البريطانية.

الخطر الصحيح والجديد اصبح في منطقة شط العرب، مكان الخلاف

المستحدث. وفي ذلك ايضاً خطر على أن يخسر الشاه ثمار سياسته الانفتاحية التي من شأنها ان ترفع اسهمه في العالم العربي. وكانت ايران في طريقها الى الوضع السابق الذي تميز بصراع مع العراق استمر حوالى قرن. لكن لطهران وسائل ضغط تستطيع بواسطتها التأثير على بغداد. وما نفع معاهدة سلام لا يرضى بها تماماً الفريق الأضعف. وكان لا بد ايضاً من نيل موافقة الدول المجاورة، الخليجية وغير الخليجية.

دول المغرب العربي الحديثة الاستقلال كانت تشكل على طريقتها طرازاً حديثاً للايديولوجية العربية ولم تكن لتتحمل تبعات وأعباء ترقى الى زمان بعيد. كانت تقول بالواقعية وتحظى باحترام اكيد. لذلك ساهمت الجزائر سنة ١٩٧٥ في حمل الفريقين على اتفاق كان يبدو صعب المنال.

ففي الوقت القصير الذي سبق توقيع اتفاق الجزائر تسنّى لي ان اقوم بمهمات عديدة تتعدى وظيفتي كصحافي. كل شيء كان ذا اهمية. لم يكن يجوز اهمال شيء واحد. حتى ان حفلة استقبال بسيطة لتكريم رجل اعمال كانت تنفع ايران بحيث تجلب لها حياد ـ ان لم نقل عطف ـ مجموعة كانت مستعدة لمحاربتها. فألححت بقدر المستطاع على التشديد على ما يحمل الشاه على تقديم تنازلات للعراقيين. وكان الجزائريون الذين التقيهم يشاطرونني الرأي، ومثلهم زعماء الامارات. الدبلوماسيون والصحافيون المصريون كانوا ايضاً يحبذون حلاً عادلاً من شأنه ان يستمر.

ولكن ماذا ينفع حسن النيات اذا كانت الخصوم تعميها الميول؟ فالنوايا الحسنة غالباً ما تكون مشبوهة في الشرق اكثر من سواه. والخصومة التي كان يبديها ازائي بعضهم في غير بلد عربي، لم تلبث ان تحولت الى عداء حقيقي.

***

تبيّن لي ذلك للمرة الأولى في البحرين. كنت اقوم بزيارة هذه الامارة الحديثة الاستقلال، حيث اجريت مقابلة مع اميرها الشيخ عيسى بن سلمان بن

خليفة. وقد رعاني الأمير باهتمامه.

في آخر يوم من زيارتي بادرني شاب بحريني بينما كنت اتناول القهوة صباحاً في مقهى الفندق الذي كنت احل فيه، قائلاً انه مساعد مدير الأمن العام. كنت في فندق «الخليج» في المنامة حيث ينزل عادة الأجانب؛ قال لي ان هناك من يسعى الى اغتيالي وان الدولة أمنت حمايتي حتى تلك اللحظة بفاعلية اذ لم يحصل لي اي مكروه، ولكن من المستحسن الآن ان اغادر البحرين. صعقت. فمن يبغي قتلي وما كنت عدواً لأحد! قال: هناك اعداء لك يسعون الى قتلك. ولم يضف شيئاً بل دعاني الى مغادرة الامارة في اقرب وقت. وانتهى لقاؤنا. حاولت ان افهم، فعدت بالذاكرة الى حوادث سابقة لعلها تنيرني. فقبل ايام كانت الحكومة السورية، حكومة نور الدين الأتاسي، قد اصدرت مرسوماً يجردني من الجنسية السورية ويقضي بمصادرة ممتلكاتي بتهمة انني اعمل ضد عروبة الخليج. لم اهلع يومها ازاء مثل هذا القرار، فهو من المقررات الطنانة في حينها، والقابلة لاعادة نظر، في ما بعد. كانت لي صداقات عديدة في الشرق وكان ما يزال لي في دمشق اصدقاء. غير ان هذا القرار الاداري اتخذ طابعاً آخر بالنسبة الى الأطر الجديدة. وبدت لي خطورة الأمر عندما توجهت الى الكويت حيث اخبرني صديقي الاستاذ احمد الجار الله صاحب جريدة «السياسة» بأنه سمع انهم هدروا دمي ووضعوا عشرة آلاف دينار ثمناً لرأسي. غرني المبلغ ورأيت ان ثمن رأسي لا بأس به، ولكن ما لبثت ان خفت. فنصح الي الأخ الجار الله بتحسين علاقاتي مع العراقيين. فالخطر في رأيه آت من بغداد. اما انا فاعتبرت التهديد ظالماً متحاملاً لأنني لست دبلوماسياً حقيقياً، وان كلفت ببعض المهمات في الخارج، فما زلت صحافياً. كما اعتبرت انني قمت بواجبي على اكمل وجه وبكل ضمير في سبيل خدمة المصالح والقيم العربية في ايران. وعرض عليّ صديقي وساطته لاصلاح الأمور، فقبلت شاكراً غير اني كنت متأكداً بأن وساطة صاحب جريدة، مهما علا شأنه، غير كافية.

فور عودتي الى طهران، اعلمت بالأمر السناتور عباس مسعودي نائب رئيس مجلس الشيوخ ومستشار الشاه. واقترحت ان اسافر الى سويسرا، واللحاق

بالشاه الذي كان يمضي عطلة في سان موريتز. وطلبت الى السناتور مسعودي مرافقتي لنعرض على الشاه مشروعاً بزيارة بغداد. وهي زيارة حيث تحاول تطبيع العلائق. وكانت فرصة ايضاً لي لاجلاء الأمور. مسعودي اكد لي بأن الشاه لن يوافق وسألني هلّا اخاف زيارة بغداد حيث يمكن القاء القبض علي وسجني؟ ولكن مقابل هذه الامكانية، كان هناك موضوع اعادة اعتباري كصحافي مسؤول ومسموع، فأكدت لمسعودي انني لا اخشى على نفسي من العراقيين اذ هم متفهمون وليسوا كما ترسمهم الدعاية المغرضة في ايران. فوافق مسعودي وقبل بمرافقتي الى سويسرا ثم الى العراق.

دعوت صديقي احمد الجار الله الى ملاقاتنا في سان موريتز. وكان الجارالله قد شق لي طريقاً مع المسؤولين العراقيين الذين اجابوه بأنهم مستعدون لاستقبالي. ولكنهم قالوا له من ناحية اخرى انني لن احظى بالحصانة الدبلوماسية. وهذا امر مخيف اذ يمكنهم استدعائي واستجوابي.

في سان موريتز استقبل الشاه مسعودي وحده. ولم يعطه جواباً نهائياً اذ من عادته التسويف: وفي اليوم التالي دعانا نحن الثلاثة الى مقابلته اي انا ومسعودي والجارالله. سألني الشاه اذا كنت خائفاً من الذهاب الى بغداد. فأجبته بأني امين من نفسي. غير انه ظل على شكّه. فطمأنته. عندئذ قال لي: اني اوافق على سفركم ولكني احذركم من ان يعرف احد في طهران أو سواها اني على علم بهذه الزيارة.

سافرنا الى لندن حيث ابرق الجارالله الى بغداد للاعلام بوصولنا. وبعد اربع وعشرين ساعة حطت بنا في العاصمة العراقية طائرة تابعة للخطوط الجوية البريطانية. من نوافذ الطائرة رأينا ثلاث سيارات سود، على الأرجح رسمية، ومن حولها رجال لم نستطع تمييز ملامحهم بسبب الغسق. فمازحني مسعودي والجارالله زاعمينَ ان هؤلاء الرجال جاءوا ليقبضوا علي ويجروني الى السجن. ولاحظت ان مسعودي، بالرغم من مزاحه، لم يبدُ كثير الارتياح. وأنا ايضاً كنت خائفاً.

خليفة. وقد رعاني الأمير باهتمامه.

في آخر يوم من زيارتي بادرني شاب بحريني بينما كنت اتناول القهوة صباحاً في مقهى الفندق الذي كنت احل فيه، قائلاً انه مساعد مدير الأمن العام. كنت في فندق «الخليج» في المنامة حيث ينزل عادة الأجانب؛ قال لي ان هناك من يسعى الى اغتيالي وان الدولة أمنت حمايتي حتى تلك اللحظة بفاعلية اذ لم يحصل لي اي مكروه، ولكن من المستحسن الآن ان اغادر البحرين. صعقت. فمن يبغي قتلي وما كنت عدواً لأحد! قال: هناك اعداء لك يسعون الى قتلك. ولم يضف شيئاً بل دعاني الى مغادرة الامارة في اقرب وقت. وانتهى لقاؤنا. حاولت ان افهم، فعدت بالذاكرة الى حوادث سابقة لعلها تنيرني. فقبل ايام كانت الحكومة السورية، حكومة نور الدين الأتاسي، قد اصدرت مرسوماً يجردني من الجنسية السورية ويقضي بمصادرة ممتلكاتي بتهمة انني اعمل ضد عروبة الخليج. لم اهلع يومها ازاء مثل هذا القرار، فهو من المقررات الطنانة في حينها، والقابلة لاعادة نظر، في ما بعد. كانت لي صداقات عديدة في الشرق وكان ما يزال لي في دمشق اصدقاء. غير ان هذا القرار الاداري اتخذ طابعاً آخر بالنسبة الى الأطر الجديدة. وبدت لي خطورة الأمر عندما توجهت الى الكويت حيث اخبرني صديقي الاستاذ احمد الجار الله صاحب جريدة «السياسة» بأنه سمع انهم هدروا دمي ووضعوا عشرة آلاف دينار ثمناً لرأسي. غرني المبلغ ورأيت ان ثمن رأسي لا بأس به، ولكن ما لبثت ان خفت. فنصح الي الأخ الجار الله بتحسين علاقاتي مع العراقيين. فالخطر في رأيه آت من بغداد. اما انا فاعتبرت التهديد ظالماً متحاملاً لأنني لست دبلوماسياً حقيقياً، وان كلفت ببعض المهمات في الخارج، فما زلت صحافياً. كما اعتبرت انني قمت بواجبي على اكمل وجه وبكل ضمير في سبيل خدمة المصالح والقيم العربية في ايران. وعرض عليّ صديقي وساطته لاصلاح الأمور، فقبلت شاكراً غير اني كنت متأكداً بأن وساطة صاحب جريدة، مهما علا شأنه، غير كافية.

فور عودتي الى طهران، اعلمت بالأمر السناتور عباس مسعودي نائب رئيس مجلس الشيوخ ومستشار الشاه. واقترحت ان اسافر الى سويسرا، واللحاق

بالشاه الذي كان يمضي عطلة في سان موريتز. وطلبت الى السناتور مسعودي مرافقتي لنعرض على الشاه مشروعاً بزيارة بغداد. وهي زيارة حيث تحاول تطبيع العلائق. وكانت فرصة ايضاً لي لاجلاء الأمور. مسعودي اكد لي بأن الشاه لن يوافق وسألني هلّا اخاف زيارة بغداد حيث يمكن القاء القبض علي وسجني؟ ولكن مقابل هذه الامكانية، كان هناك موضوع اعادة اعتباري كصحافي مسؤول ومسموع، فأكدت لمسعودي انني لا اخشى على نفسي من العراقيين اذ هم متفهمون وليسوا كما ترسمهم الدعاية المغرضة في ايران. فوافق مسعودي وقبل بمرافقتي الى سويسرا ثم الى العراق.

دعوت صديقي احمد الجار الله الى ملاقاتنا في سان موريتز. وكان الجارالله قد شق لي طريقاً مع المسؤولين العراقيين الذين اجابوه بأنهم مستعدون لاستقبالي. ولكنهم قالوا له من ناحية اخرى انني لن احظى بالحصانة الدبلوماسية. وهذا امر مخيف اذ يمكنهم استدعائي واستجوابي.

في سان موريتز استقبل الشاه مسعودي وحده. ولم يعطه جواباً نهائياً اذ من عادته التسويف: وفي اليوم التالي دعانا نحن الثلاثة الى مقابلته اي انا ومسعودي والجارالله. سألني الشاه اذا كنت خائفاً من الذهاب الى بغداد. فأجبته بأني امين من نفسي. غير انه ظل على شكّه. فطمأنته. عندئذ قال لي: اني اوافق على سفركم ولكني احذركم من ان يعرف احد في طهران أو سواها اني على علم بهذه الزيارة.

سافرنا الى لندن حيث ابرق الجارالله الى بغداد للاعلام بوصولنا. وبعد اربع وعشرين ساعة حطت بنا في العاصمة العراقية طائرة تابعة للخطوط الجوية البريطانية. من نوافذ الطائرة رأينا ثلاث سيارات سود، على الأرجح رسمية، ومن حولها رجال لم نستطع تمييز ملامحهم بسبب الغسق. فمازحني مسعودي والجارالله زاعمينَ ان هؤلاء الرجال جاءوا ليقبضوا علي ويجروني الى السجن. ولاحظت ان مسعودي، بالرغم من مزاحه، لم يبدُ كثير الارتياح. وأنا ايضاً كنت خائفاً.

واقترب الرجال من سلم الطائرة. وهفّوا الينا لا لتوقيفي انما لاستقبالنا بشكل لائق قد لا يخلو من حرارة. وبين هؤلاء الرسميين السيد طارق عزيز نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية اليوم، والسيد سعدون شاكر مدير المخابرات يومها ووزير الداخلية اليوم. فرافقناهم، وقد تبددت مخاوفنا ومحاذيرنا.

اللقاء الذي جرى في اليوم التالي مع السيد صدام حسين، الرئيس الحالي، تميز بالنوايا الحسنة. لقد كان مثلنا يرجو ان تتطبع العلاقات بين بغداد وطهران وأن تتوقف الحملات الاعلامية المعادية في كلا البلدين. ثم استقبلنا الرئيس احمد حسن البكر. وكانت المقابلة ودية وحارة.

لا شك ان تلك السفرة كانت نجاحاً شخصياً بالنسبة اليّ ولكن وجود السناتور مسعودي ـ الذي استقبله الرئيس البكر بحفاوة بالغة ـ ساهمت في نجاح مهمة لم تكن في الأساس مكفولة. فمسعودي معتبر في العراق كما في دول الخليج صديقاً للعرب والايرانيين جميعاً. ووجوده الى جانبي ساهم كثيراً في تحسين صورتي. وكنت سعيداً اذ ساهمت في تقارب عربي ايراني قد ينبىء ببدء مبادرة سلام. وهنا ايضاً كان حَدسي مصيباً. فلطالما اعتبرت ان العلاقات الانسانية والشخصية بالغة الأهمية في الشرق، وربما اساسية.

عدنا انا ومسعودي تواً الى سان موريتز فيما الجارالله عاد الى الكويت. استقبلنا الشاه لدى وصولنا وأبدى ارتياحاً للتقرير الذي قدّمناه له. لعله كان يظن ان كل محاولة سلام بين بغداد وطهران باتت مستحيلة فبدا سعيداً بما سمعه على لساننا. صحيح ان السعادة لم تبدُ على وجهه وملامحه. ولكنه راح يهز برأسه كعادته عندما يكون راضياً. وكنا متأكدين بأن اخبارنا لا بد ان تسره.

قضيت الليل انا ومسعودي في وضع تقرير لتقديمه للعراقيين. ولكننا في اليوم التالي حرصنا على اطلاع الشاه على كل التفاصيل الواردة فيه. كان لا شك موافقاً على الخطوط العريضة ولكنه اجرى تصحيحات في اكثر من نقطة، وبخاصة في ما يتعلق بحرية الملاحة في منطقة شط العرب. فقد كان يعرف الموضوع بدقة ويهتم به اهتماماً كبيراً. غير انني فهمت انه بالرغم من رغبته في حل

الأزمة بين البلدين لم يكن سهلاً ان يقدم اي تنازلات.

عندما استأذنّا الشاه مودعين كلفني مسعودي بنقل الجواب الى بغداد. وقال لي: لا تنس ما اوصاك به الشاه بالنسبة الى سرية المهمة. ونصح اليّ ان اسافر الى بغداد عبر مطار اوروبي وأن اتجنب المرور بأي دولة عربية.

تنقلاتي المكوكية بين بغداد وسان موريتز جاوزت العشرة. كنت دائماً حاملاً رسالة أو رداً على رسالة. وقد اتفقت مع السلطات العراقية على شيفرة سرية لاعلامها بوصولي كل مرة. وقد ادت هذه التنقلات المرهقة الى محادثات جنيف الشهيرة التي ضمت وزيري خارجية الدولتين. وكانت خطوة اولى في طريق طويل، اذ لزم إثر ذلك اكثر من سنتين للتوصل الى اتفاق الجزائر، سنة ١٩٧٥.

***

توجهت الى جنيف قبل عشرة ايام من اللقاء وذلك من اجل المشاركة في الأعمال التحضيرية. ونزلت في فندق انتركونتيننتال. الحلول الحاسمة للخلاف لم تكن بين ايدينا، لأن الاتفاقات الظاهرة تخبىء عادة آفاقاً اخرى. فالمسألة الكردية مثلاً، وهي تشكل مع مشكلة الحدود قلب الخلاف، كان على رئيسي الوفدين معالجتها عندما سيجتمعان.

الوفد العراقي كان برئاسة السيد مرتضى عبد الباقي وزير الخارجية. وكان يضم السيد طارق عزيز، والمستشار القانوني في الخارجية العراقية. اما الوفد الايراني فيرئسه وزير الخارجية ايضاً عباس خلعتبري (الذي اعدم بعد اسابيع من قيام الجمهورية الاسلامية الايرانية). ويضم الدكتور جعفر نديم والدكتور صدري، وكلاهما من مستشاري الشاه المقربين. وكان في الوفد ايضاً ضابط من السافاك. احتجزنا طابقاً كاملاً في فندق انتركونتيننتال لوفدي البلدين وكنت انا اقوم بدور الوسيط بينهما وصلة الوصل. اقترحت الانكليزية لغة للمفاوضات

فوافق الفريقان. وقد حرصت على تطوير العلاقات الشخصية باقامة حفلات عشاء. وبسرعة تحسنت الأجواء وشعرنا بأن مناخ المحادثات سيكون مؤاتياً ولن تعترضه عقبة. المندوبون الايرانيون كانوا يعتصمون بنوع من جمود بروتوكولي اما العراقيون فكانوا اكثر عفوية. غير انه تبين لنا لدى اتفاقنا على مختلف البنود ان الصعوبات الكبرى كانت مبدئياً قد ازيلت.

استمرت المحادثات ستة ايام وتقرر توقيع مشروع الاتفاق في الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم الأخير. كنت سعيداً. فالوفاق بين العراق وايران سيؤدي حتماً الى مسيرة وفاق اوسع وأهم: وفاق ايراني عربي. وهو امر يهمني كثيراً. في السابعة والنصف، رنّ جرس الهاتف في غرفتي وكان مكلمي الوزير خلعتبري، رئيس الوفد الايراني. فطلب الي ان اتوجه تواً الى غرفته، ولو في لباس النوم، لأن الأمر خطير. ذهبت اليه فأخبرني انه تسلم برقية «تلكس» من طهران تأمره بالتوقف عن اي توقيع مع العراقيين وبالعودة فوراً.

كانت صدمة للجميع. لخلعتبري كما للعراقيين، الذين عقدوا آمالاً كبيرة على هذا الاتفاق، ولي شخصياً. ولاسيما اني قد وضعت كل رجائي في هذه المفاوضات فرأيت انها تتبخر وتذهب ادراج الرياح. وهو امر مُبكٍ ان تؤدي اشهر طويلة من الجهود والآمال الى مثل هذا الفشل. سألت خلعتبري عن سبب هذا التحول فأجابني انه يجهله وان التلكس لا يعطي اي شرح أو تفصيل. رأيي انا ان جهات خارجية ضغطت على الشاه، جهات اميركية حتماً، فالادارة الاميركية لم تكن ترى بعين الرضا هذا التقارب العراقي الايراني. اما خلعتبري الذي كان يعي خطورة هذه القطيعة فطلب مني ان ادبر له لقاءً ثنائياً مع نظيره العراقي مرتضى عبدالباقي. قال: اسأله هل يود ان اتوجه الى جناحه أو يؤثر ان يزورني؟

حصل اللقاء عند الوزير العراقي وقد دعيت الى حضوره. فقد بادره خلعتبري قائلاً: يحز في اعلامك بأني تلقيت تعليمات صارمة بوقف المفاوضات والعودة رأساً الى طهران. واني استبق سؤالاً لا بد ان تطرحه عليّ فأجيب عنه قبل ان تطرحه: لا علاقة لي شخصياً بالذي يحصل ولا علم لدي بأسباب هذا

التحول. فأنا انفذ تعليمات تلقيتها من الشاه.

تأثر مرتضى عبد الباقي مما حصل لكنه لم يفه بكلمة. اما انا فلم استطع ان اسكت وأعربت للجميع عن يقيني بأن الاميركيين وراء هذه النكسة، ولاسيما ان المحادثات حصلت بمنأى عنهم.

فشل مفاوضات جنيف كان بالنسبة اليّ نوعاً من صفعة، اذ كنت ملتزماً بها متعلقاً كلياً. فهل هناك من ضربة موجهة اليّ شخصياً؟ الذين يحيطون بالشاه ليسوا كلهم من المحبين. وقد امسيت موضع مضايقات السافاك لأن الجنرال نصيري لم يكن راضياً عن رحلاتي المكوكية بين طهران وبغداد وسان موريتز. وقد اغاظه الدور الذي تسنى لي القيام به. على صعيد آخر كان فريق في طهران يجد مصلحته في الصراع الدفين بين العراق وايران. وشعرت بخيبة لا توصَف...

هو السناتور عباس مسعودي الذي اعاد لي الثقة؛ فقد اقنعني بأننا قد قطعنا شوطاً كبيراً يقضي بأن نستمر، اياً كانت العقبات والحواجز التي تعترض طريقنا. ومهما يكن من امر فلن تذهب جهودنا هدراً.

كان على حق. فلاحظت ان العلاقة بين العاصمتين اصبحت اكثر مرونة. وجرى تبادل دبلوماسي. غير ان وجود العراق وايران جنباً الى جنب كعضوين في منظمة الأوبيك كان لا بد له ان يؤدي الى مزيد من التقارب بين الدولتين.

كنت مقروحاً من فشل محادثات جنيف بحيث رفضت المشاركة في الأعمال التحضيرية لمؤتمر الجزائر. ولا شك ان الشاه شعر بأنه اقترف خطأ فدعاني الى حضور مراسم توقيع الاتفاق. قال لي يومها خلعتبري على مسمع من الشاه: «لولاك لما استطعنا الوصول الى ما نحن عليه». فأجبته بأن همي الأوحد هو خدمة اخواني العرب.

المتاهات التي رافقت هذه القضية تعطي فكرة عن التأثيرات العديدة التي كان يعاني الشاه من ضغوطها. وأكثر من تحميل حاشيته المسؤولية، لا بد من تحميلها للولايات المتحدة، اذ لم يكن الشاه يرفض لها طلباً. صحيح ان العلاقات

العراقية الايرانية تحسنت بتوقيع اتفاق الجزائر، ولكن ما اكثر المحاولات الخيّرة التي اجهضت لسبب واحد، وهو ان الشاه لم يكن يتكل على حدسه ـ وهو غالباً صائب ـ بقدر ما كان يتكل على مستشاريه، الاميركيين خاصة.

اتفاق الجزائر حقق، بالنسبة الى الدبلوماسية الايرانية، نجاحاً لا شك فيه. فقد استطاع الشاه، مقابل تنازلات صغيرة، اقتسام شط العرب. وذلك بموجب معاهدة القسطنطينية (١٨١٣). اما المكسب العراقي المتمثل في جزيرة القصاصيف فكان ضئيلاً بالنسبة الى اتفاق سنة ١٩٣٧. ومقابل ذلك فان المكاسب الايرانية ضخمة اي اقتسام مياه شط العرب والاشراف على الملاحة في النهر.

التنازلات الكبرى والحقيقية كانت اذاً من الجانب العراقي، لذا لم اعجب يوم قرر الرئيس صدام حسين إثر اخذ ورد طويلين، مواجهة نظام الخميني.

هنا، لا بد من التوقف قليلاً عند اتفاق الجزائر لنرى كم كان يفتقر الى وضوح، وكيف ان العراقيين قبلوا بقوة الأمور بوضع لا يحل لهم المشكلة، انما يفتح الباب امام مشاكل جديدة.

***

لنرَ اولاً عن كثب البيان المشترك العراقي الايراني الذي سبق توقيع الاتفاق. فهو يتضمن في الواقع متناقضات. ذلك ان الجانبين كانا اتفقا على ما يلي:

اولاً، تحديد الخط الفاصل نهائياً بين حدود الدولتين بموجب بروتوكول القسطنطينية سنة ١٩١٣.

ثانياً، تحديد الحدود النهرية بموجب خط تهالوغ.

اما العودة الى اتفاق القستنطينية فلم تعد الاّ مجرد ذريعة نظراً لكون موضوع ضفتي شط العرب معالجاً على حدَة. ففي الواقع كان اتفاق سنة ١٩١٣

ينص ان «تتبع الحدود مجرى شط العرب حتى البحر، تاركة تحت السيادة العثمانية النهر والجزر التي فيه، باستثناء...». وكانت هذه الاستثناءات ضئيلة جداً. فالعراق يشرف على القسم الأكبر من الضفة الشرقية بما فيها الجزء الذي يشمل المصب، وحتى مرفأ مهماره الايراني.

ومن الواضح ان اتفاق الجزائر فرض على العراق التخلي عن حق الاشراف على النهر، وهو حق او امتياز احتفظته الدولة العثمانية على الفرس عشية الحرب العالمية الأولى. غير ان الرئيس صدام حسين كان يحرص على الانتهاء من المسألة الكردية، ويعتبر محقاً ان سلاماً هزيلاً مع الشاه خير من استئناف صراع، حيث يكفي الشاه ان ينفخ في الجمر لاضرام النار. ولاسيما ان حرب الكردستان كانت تستنزف العراق. والشاه يومها الأقوى.

في الواقع، منذ ان اعلنت بريطانيا سحب قواتها من المناطق الممتدة شرقي السويس، راح الشاه يحل مكانها. كان يسعى الى جعل ايران دولة عظمى، مع كل مظاهر القوة طبعاً، وكل تصرفات الامبريالية. ويفسّر تصرف الشاه ازاء العراق من خلال مشاكل عديدة كانت قد حصلت بين الدولتين. ولكني خشيت ان يذهب الشاه يوماً الى التصرف مع المملكة العربية السعودية بالطريقة عينها. فمنذ سنة ١٩٦٨، تبوّأت السعودية مركزاً هاماً في المنطقة، وقد تزعّمت جبهة المواجهة مع اسرائيل. كما كانت تكوّن، مع ايران، احدى الركيزتين اللتين يقوم عليهما امن الشرق الأوسط.

لا شك ان الشاه كان يعتبر الملك فيصل بن عبدالعزيز نداً، ولكن هل يقابله بمعاملة صداقة أو خصومة؟ فقد سعيت مع السناتور عباس مسعودي الى حث الشاه على تقارب بينه وبين العاهل السعودي. وفي هذا الاطار، صوّرنا له ان يبدو تجاه العالم العربي وفي الساحة الشرقية عامة لا كسليل قورش، انما كأحد ابناء سلالة الامام علي. وشجعته شخصياً على فرض نفسه كشخصية مرموقة في قلب العالم الاسلامي. اثناء المقابلة التي دعاني اثناءها الى الكلام على مسألة العروبة، قلت له: «انت زعيم اكبر دولة شيعية، والطائفة الشيعية هي اكبر

الطوائف الاسلامية في الخليج». واستطيع الجزم بأنني سعيت الى اقناعه بالقيام بدور الوسيط بين كل الدول العربية. وكان هذا الموضوع نوعاً من «وتر حساس». فالشاه المتصلب والحريص على سلطته ونفاذ رأيه كان الى جانب ذلك كثير التفهم، قابلاً بالحجج المتينة، وبخاصة الدبلوماسية منها. وللمناسبة حاولت اقناعه بالقيام بوساطة في الصراع القائم بشأن واحة البريمي بين السعودية وأبو ظبي. اقتنع مني واتصل بالشيخ زايد بن سلطان آل نهيان الذي كان قد تسلم الحكم في ابو ظبي، ونصح اليه ان يكتب رسالة الى الملك فيصل. ثم ان الشاه اوكل اليّ ان انقل انا هذه الرسالة الى العاهل السعودي. فبدأت يومها سلسلة مهمات كلفت بها بدعم من مسعودي.

بين مهماتي التي اعتبرتها ناجحة اكثر من سواها تلك التي سعيت فيها الى اقناع الملك فيصل بالقيام بجولة في الدول الاسلامية، ابتداءً بالجارة الكبرى ايران، «ايران السائرة تحت راية التضامن الاسلامي». قدّر لي ان اتعرف الى الملك فيصل في عهد والده الملك عبد العزيز. كان ذلك في مكة المكرمة سنة ١٩٤٩. وراعني ان ارى هذا الرجل المغمور، يقيم في مكة كما أقلّ الحجاج، اذ يسكن منزلاً من القرميد عائشاً تحت سقفه زاهداً شبه متقشف. لم تكن رفعة الشأن بالنسبة اليه مقرونة بحب الغنى والثراء. بل انها، بالعكس، تتوافق مع رسالة دينية. فقد كان الفيصل، بعد الاحتلال العثماني، يعيش كما في بدء الاسلام؛ فنهج حياته مستوحى من تعاليم القرآن الكريم، وبخاصة ان اسس الدين والوطنية تتلاقيان وتختلطان في تلك الديار. وكانت شخصية فيصل بن عبد العزيز تفرض الاحترام. اما فضيلة المزايا الخلقية التي افتقر اليها الشرق في منتصف القرن فقد عادت لتجد معناها الأكمل لديه. ولكم كنت آسفاً في الصميم ان لا ارى الشاه ـ الذي اقدره وأكنّ له كل احترام ومحبة ـ يقف هو ايضاً في ظل هذه الراية الدينية والخلقية. ولاسيما انني واثق بأن ميله الطبيعي لم يكن متنافياً مع ذلك بعيداً عن روحه. فالشاه غيور على سلطته وسلطانه. واذا كان ينعم ببعض المتعة اثناء أسفاره الى اوروبا، فقد كان الى جانب ذلك يستفيد من هذه التنقلات ليقوم بنشاطات كبرى. ولكم شجعته، ضمن طاقتي الوضيعة،

على اتخاذ موقف يتوافق مع البيئة الجغرافية المحيطة بايران، ومع تقاليد الشرق عامة. ونصحت اليه أن يعنى اكثر بمهمته الدينية فتكون رسالة حقيقية. وفي هذا الاطار، كان السناتور عباس مسعودي قد اعد برنامج زيارة الشاه الى المملكة العربية السعودية وهي الزيارة التي تأتي بعد الجولة الرائعة التي دعي الملك فيصل الى القيام بها في ربوع ايران.

هذه الزيارة التي ساهمت في الاعداد لها كانت تحت شعار التعاون العربي الايراني وهو الأمر الذي طالما رجوته. ولكن حساسية الشاه الشديدة في كل ما يخص مسائل الخليج، ادت مرة جديدة الى افشال هذه المبادرة المرجوة. قبل موعد سفر الشاه بعشرة ايام، حملتني طائرة عسكرية الى الرياض، وفيها الهدايا الرسمية المعدة للملك فيصل وللأمراء وأفراد الحاشية. وبين هذه الهدايا مجموعة نفيسة من السجاد والكافيار الايراني.

غداة وصولي اتاح لي الملك ان اقابله، ثم قمت بجولة في العاصمة السعودية الملأى بالزينة الرائعة وبالأعلام السعودية والايرانية وبكل مظاهر التكريم لاستقبال الشاه. وكذلك كانت قد زينت المدن السعودية الأخرى. كنت في فندق الصحراء، في الرياض، عندما زارني الدكتور مشايخ فريدني سفير ايران في السعودية، ومعه الدكتور زنفربور مستشار الخارجية الايرانية. كان ذلك يوم الجمعة حوالى الساعة الثامنة مساء. وقد بدا وجها الرجلين شاحبين. بادرني السفير بصوت شبه خافت حزين: «لدي نبأ مزعج. لقد قرر جلالة الشاه الغاء زيارته الرسمية للمملكة. وقد استقل الدكتور زنفربور طائرة خاصة من طهران الى الرياض لاعلام الملك فيصل بذلك».

كاد يغمى علي. فها هي اسابيع من الجهد والعمل المتواصل والترتيبات تمحى بلحظة! ولكن لا بد ان يكون هناك سبب. فأعلمني السفير به: إن الملك فيصل استقبل رسمياً امير البحرين في وقت يسعى الشاه الى ضم الامارة لايران. فأجبت ان زيارة امير البحرين ترقى الى اكثر من شهر ونصف. فلمَ لمْ تُلغَ زيارة الشاه يومها؟ ولماذا ارسلني رسمياً الى هنا؟!

حاول السفير الدفاع عن حجة الشاه فلم استطع ان اتمالك وقلت: «هذا القرار خاطىء لأنه ارجىء طويلاً فجاء متأخراً. كان يجب الرد فوراً وليس الآن. ثم ان ايران ليست وصية على الملك فيصل وعلى المملكة العربية السعودية، والمملكة حرة في استقبال من تشاء. انه نوع من تدخل في شؤون الآخرين الداخلية».

اجابني السفير بشيء من تعالٍ: «كيف تجيز لنفسك ان تقول ما تقوله وأنت من رعايا الشاه؟». فذكرته بأنني لست ايرانياً، ولا احمل جواز سفر ايرانياً. وانتهت المقابلة وأنا بين السأم والامتعاض. لا بل البكاء...

فقد زعزعني هذا التصرف الأرعن، ولم استطع يومها نوماً. مكانتي في ايران مرموقة دونما شك. وقد تسنى لي مراراً من خلال منصبي فيها ان اتلاقى مع كبار القوم وزعماء العالم وساسته. لكني لم اعتبر مرة نفسي موظفاً مأجوراً أو مأموراً. بل بالعكس، حرصت دائماً على ابداء رأيي صريحاً.

تساءلت: ما الذي حصل؟ كيف يمكن لعاهل يضطلع بمسؤولية دولة كبيرة كايران ان يرتكب خطأً فادحاً كهذا؟ فكرت ان لا اعود ابداً الى طهران وأن اقيم في السعودية حيث يمكنني العمل دون ضغوط.

في اليوم التالي استدعاني الملك فيصل. وكان قد رفض استقبال موفدَي الشاه اللذين جاءا يعلمانه بالغاء الزيارة.

عودني الملك ان يستقبلني واقفاً غير انه يومها ظل جالساً وأشار الي ان اقعد. والجو مشحون لا يطاق. قال:

اذاً، ها هو الشاه يعود الى التصرفات التي تعوّد اسلافه ان ينهجوها ازاء العرب! وها هو من خلال الاساءة اليّ يسيء الى الاسلام والمسلمين جميعاً. فماذا تقول؟

كدت ابكي. فأنا في حضرة احد الرجالات الذين اعتبرهم وأقدرهم وأكن

لهم كل احترام (بنوي)، اجده يخاطبني بجمود وسأم وقرف من اصابته اساءة...

اكتفيت باعلامه بقراري عدم العودة الى طهران. لكنه اثناني عن ذلك قائلاً: بل عد الى ايران. فلقد ساهمت غير مرة بالأمس في تجنب الخلافات بين الايرانيين والعرب، وانك هناك تخدم القضايا العربية على خير ما يكون. ضروري الآن تدارك المستقبل وصيانته. ولا بد انك في طهران تساهم في الحفاظ على المصلحة العربية خيراً من سواك.

عرفت عندئذ رأي الملك في الشاه. فقد نسب تصرفه الخاطىء الى رعونة الشباب. وكأنه غير حاقد عليه.

ولمست مرة جديدة لدى العاهل السعودي هذا النبل الأصيل الكفيل، وحده، بتفادي الأزمات وغادرات الزمان. وشعرت بارتياح حقيقي.

في الطائرة التي استقليتها الى طهران بدأت أعد التقرير الذي سأرفعه الى الشاه حول النتائج الخطيرة لما حصل. ركزّت على أهمية الاستقبال الذي أعد. وألححت على وجوم الملك وحاشيته، وأنهيت الصفحات الثماني التي تشكل تقريري بالاشارة الى النتائج الوخيمة لعزل ايران، اذ ستتكوّن ضدها جبهة اسلامية معادية. اخيراً، شددت على فشل الدبلوماسية الايرانية في هذا الموضوع. السناتور مسعودي الذي رفع التقرير الى الشاه اعلمني في ما بعد كم أثّر فيه. فلقد قرأه وهزّ برأسه طويلاً وقال كمن يعترف: «ان موقف الملك فيصل لفي منتهى النبل. واني مخطىء. اجل انا مخطىء». وأكدّ لي مسعودي بعد ذلك انها اول مرة في حياته يسمع الشاه يعترف بخطأ امام احد معاونيه.

بعد ايام، أوفد الشاه من يسألني ماذا يستطيع فعله لتصحيح الاساءة بالنسبة الى السعوديين. فالشاه الذي كان يستعد لزيارة الامبراطور هيلا سيلاسي، كان بوده ان يتوقف، في طريقه الى اديس ابابا، بمطار جده، وأن يجتمع الى الملك فيصل. وكان بذلك يسعى الى محو الأثر السيء الذي خلّفه الغاء زيارته. لكن الأمر صعب لتقبل به الرياض وأنا من جهتي، كنت انتظر رفضاً جافاً.



لكن الملك فيصل، بالرغم من التوتر الدبلوماسي بين البلدين، قبِل ان يستقبلني. فسمحت لنفسي في حضرته ان انتقد الفرس وعاداتهم وتقاليدهم وكل ما يجعلهم مختلفين عن الأصالة العربية. فأبدى الملك ارتياحاً لكلامي. وقبل ان يستقبل الشاه ابان محطة طائرته. لكنه حدّد فترة اللقاء بأربعين دقيقة.

غير ان المحادثات بين العاهلين فاقت كل الآمال والتصورات، فاستمرت خمس ساعات. بعدها، غادر الشاه المملكة مرتاحاً للغاية، وكان في اثناء تلاقيه مع الملك فيصل في جده قد اتفق مع العاهل السعودي على القيام بزيارة جديدة الى الرياض بعد حوالى شهر، اي اثر عودته من اديس ابابا. وهكذا كان. فقد زار الشاه المملكة العربية السعودية في الموعد المتفق عليه واستقبل بحفاوة بالغة. وعشية وصوله اقام الملك فيصل حفل عشاء على شرفه في القصر الملكي. اثناء ذلك تبودلت الخطب فألقى الشاه كلمة حيث خاطب الملك فيصل ونعته بأمير المؤمنين.

بعد الحفلة، دعاني الملك فيصل على حدة وأكد لي ما كنت قد شعرت به من قبل، وهو ان الفيصل ما كان ليعتب على الشاه أو ليغتاظ منه كثيراً. لكني اعتبرت هذا التحوّل نجاحاً، بل تتويجاً لجهودي. ولكن كل هذه الأمور كانت تبيّن بشكل جلي وحاسم ضعف السلطة الأوتوقراطية التي تحكم ايران.

***

مع مرور الزمان، نستطيع القول ان سياسة ايران تجاه العرب غالباً ما تميّزت بالحساسية والامبريالية لتأتي بثمار حقيقية أو لتؤدي على الأقل الى حلف صحيح. فالشاه كان يعامل الدول العربية بشيء من تعالٍ بيّن، كما كان ينهج الغربيون من قبله. وكان مقتنعاً بتفوق ايران كما الانكليز كانوا مقتنعين بتفوقهم. وكان هذا الاقتناع يترسخ فيه يوماً بعد يوم بفضل الاحصاءات والأرقام. ولكن، غاب عنه ان ايران دولة عظمى على الورق، ليس اكثر.



جنود عراقيون في منطقة الاغوار





١٩٤٩، من اليسار: الملك فاروق، الزعيم حسني الزعيم، رئيس الجمهورية السورية، نذير فنصه.



١٩٦٠،
اول زيارة للملك
حسين الى طهران.



١٩٦٢،
نذير فنصه مع الدكتور
علي اميني رئيس وزراء ايران السابق.



ناسبة اول زيارة للملك حسين الى طهران. من اليمين: الجنرال تيمور بختيار، نذير فنصه، هزاع المجالي رئيس
زراء الأردن الذي اغتيل في عمان.

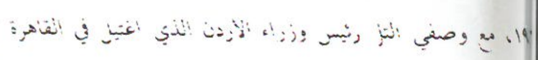


نذير فنصه بلباس المقاتلين اليمنيين يتوسط بعضهم في جبال اليمن



١٩٦٣، مع الرئيس الحبيب بورقيبة.





١٩، مع وصفي التل رئيس وزراء الأردن الذي اغتيل في القاهرة

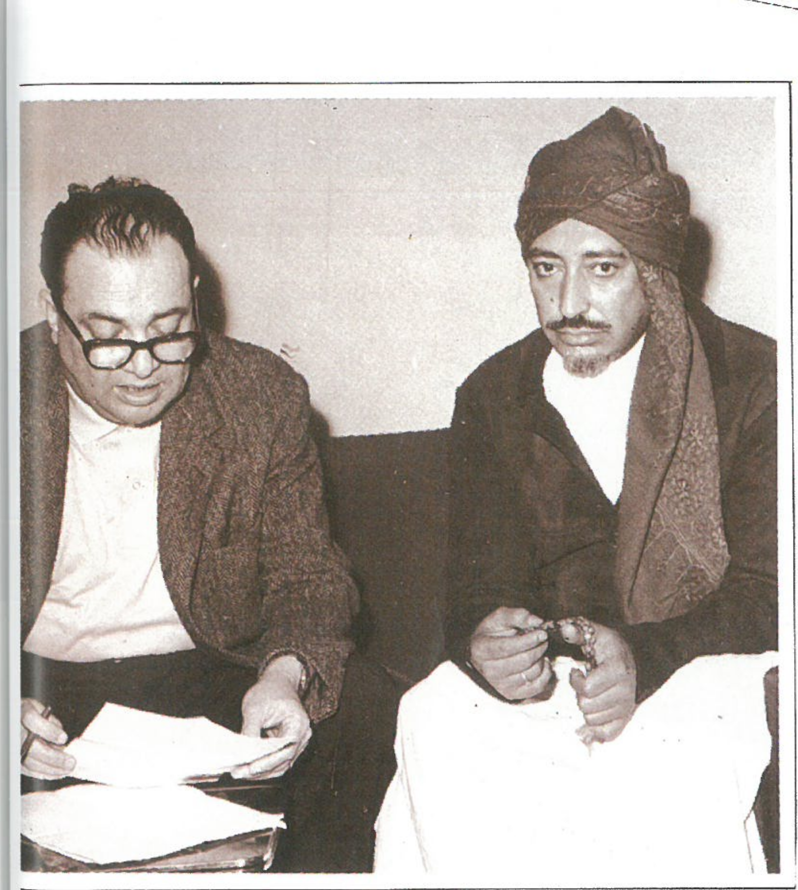
١٩٤٩، في قصر رئاسة الجمهورية الفرنسية (الأليزه)
من اليسار: الدكتور عدنان الأتاسي سفير سوريا في باريس،
الرئيس الفرنسي فنسان اوريول،
ادمون حمصي سفير سوريا في...



١٩٦٥، نذير فنصه بين الملك حسين والمشير زيد بن شاكر رئيس اركان الجيش الأردني



في مطار الرباط،
الملك الحسن الثاني يستقبل الشاه.
وقد بدا نذير فنصه في اليسار.



١٩٦٥، نذير فنصه
يجري مقابلة مع ملك اليمن
الامام البدر.





١٩٧٠،
نذير فنصه بين الامام
موسى الصدر والسناتور
عباس مسعودي في جريدة
«اطلاعات» في طهران.



١٩٧، من اليمين: الملك الحسن الثاني، وعلال الفاسي رئيس حزب الاستقلال المغربي، ونذير فنصه.



١٩٧٥، الرئيس صدام حسين في مطار طهران. الى اليمين: نذير فنصه مصافحاً الرئيس العراقي

١٩٧٣، الرئيس العراقي احمد حسن البكر يستقبل نذير فنصه

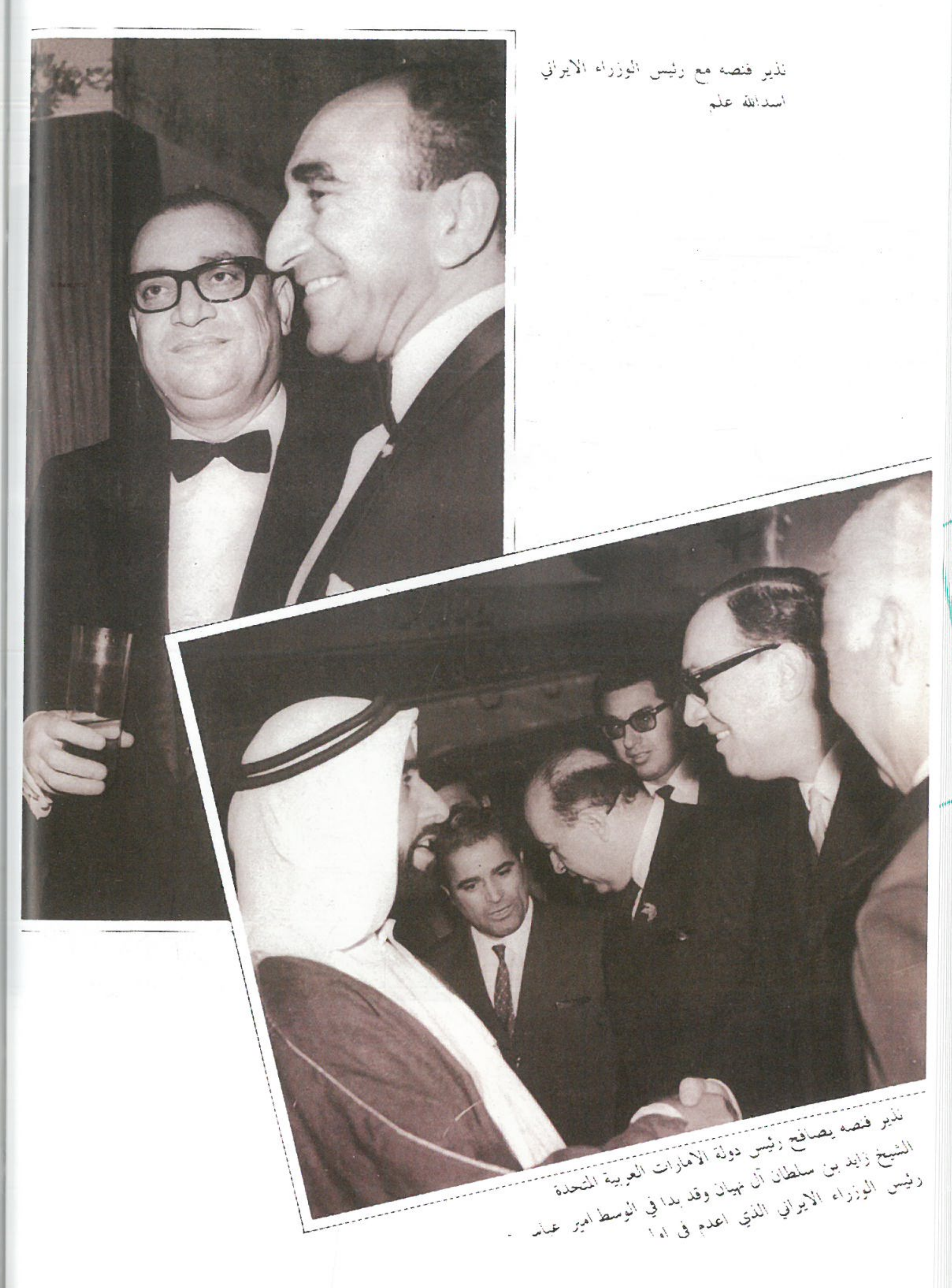
الدكتور محمد مصدق



نذير فنصه مع السيد ضياء الدين الطبطبائي اول رئيس وزراء لايران في عهد الأسرة البهلوية.



نذير فنصه يصافح الشيخ صباح الأحمد الصباح امير دولة الكويت السابق



نذير فنصه مع رئيس الوزراء الايراني
اسدالله علم

نذير فنصه يصافح رئيس دولة الامارات العربية المتحدة
الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان وقد بدا في الوسط امير [illegible]
رئيس الوزراء الايراني الذي اعدم في [illegible]



نذير فنصه يصافح امير البحرين الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة اثناء زيارته لطهران بعد استقلال البحرين.
وقد بدا في الوسط السناتور عباس مسعودي



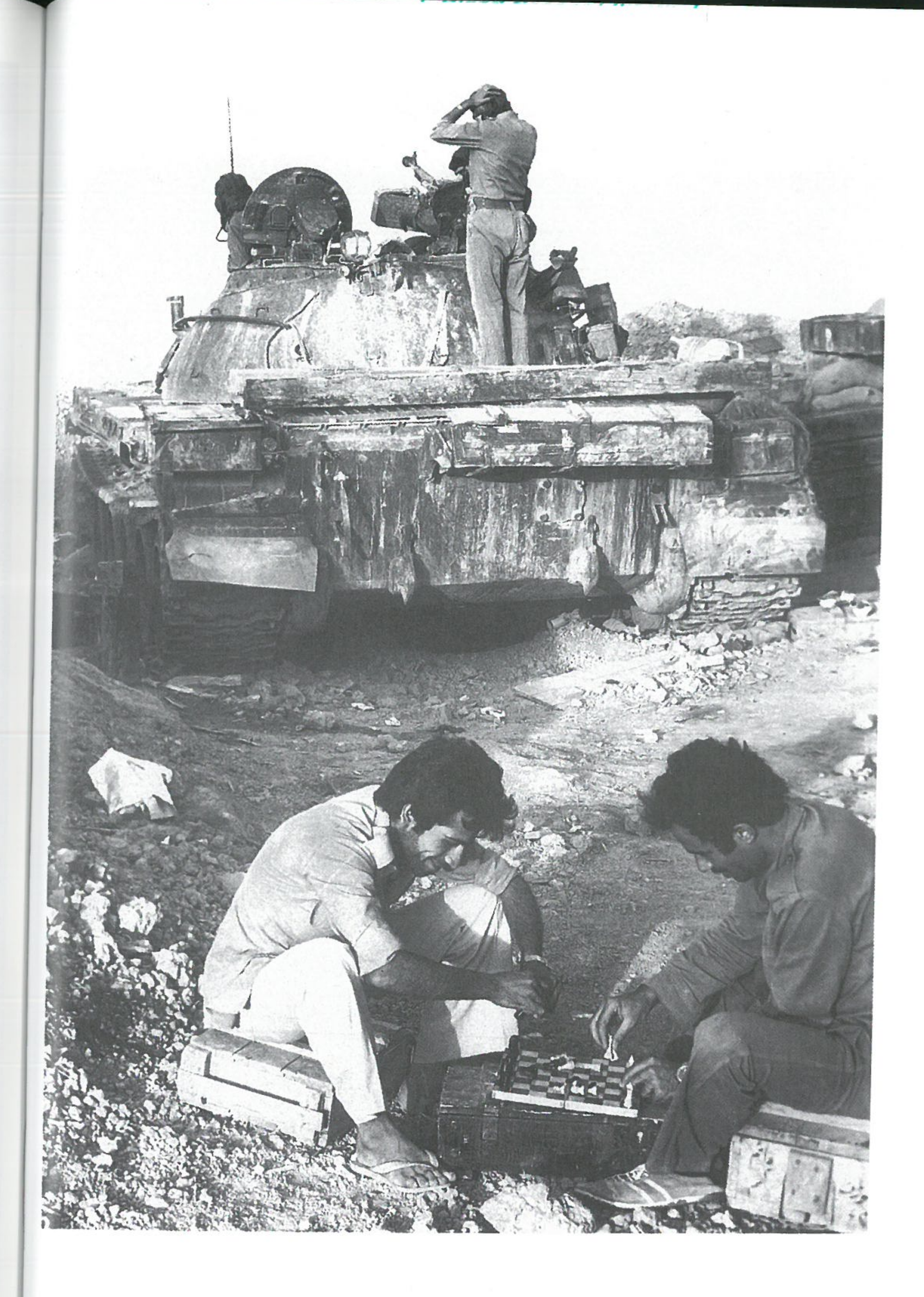
ير فنصه يصافح امبراطورة ايران (الشاهبانو فرح ديبا) التي تتوسط ولي العهد الأمير رضا بهلوي وفرهاد
سعودي



الملك فهد بن عبد العزيز في زيارة رسمية لطهران يوم كان ولياً للعهد والى جانبه رئيس الوزراء الايراني امير عباس هويدا والى اليسار وزير الدفاع المصري الفريق عبد الغني جمصي ونذير فنصه



في القصر الملكي في جده المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز يستقبل نذير فنصه



مراسلان صحافيان عراقيان يلعبان الشطرنج إبان استراحة قصيرة في الجبهة

استراحة المقاتلين العراقيين في احد خنادق القطاع الجنوبي

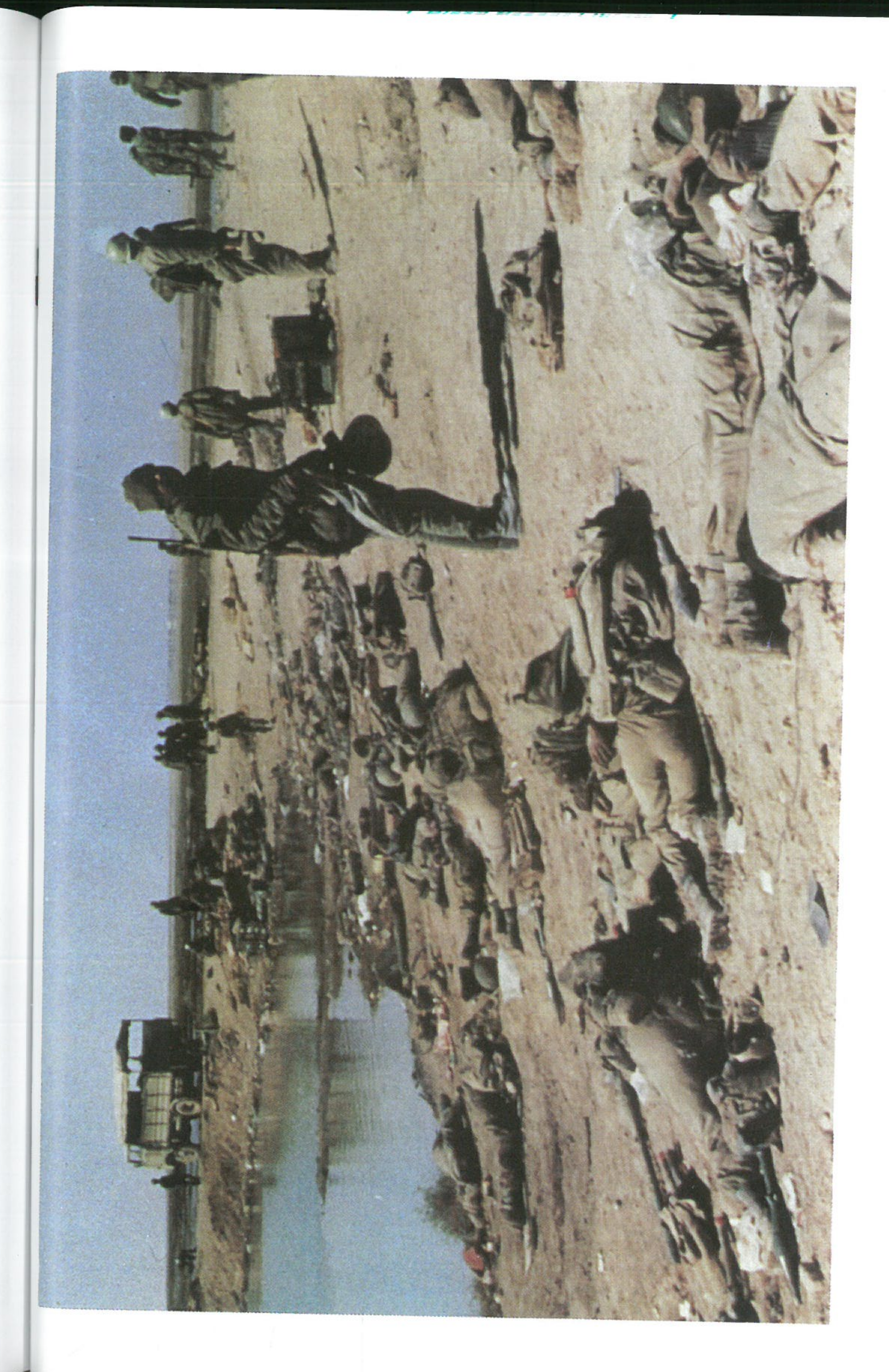
غير اني كنت ارى الأمور مختلفة، وكما مسعودي كنت ارجو لايران ولعاهلها سياسة اخرى. فلا شك ان سير الأشياء كان تبدل لو سعى الشاه الى ان يكون ايضاً الزعيم الروحي للطائفة الشيعية، أو على الأقل، حامي حماها. فهالة الملوك في الشرق تختلف عن صورتهم في الغرب. والشعوب الشرقية لا تنظر بعين الاعجاب الى الوجه الاداري أو التقني في عالم حيث الطبيب هو اهم البشر قاطبة. لذلك فان طموحات الشاه الحضارية وسعيه الى ان يكون الخادم الأول لمصالح دولته لم تكن تعني شيئاً لأبناء الشعب.

والى جانب الزعيم الروحي - وهي الصورة التي كنت افضلها له - هناك صورة الزعيم الشعبي. كما جمال عبد الناصر. فايران، والعالم العربي معها، ما زالت تبحث عن زعيم حقيقي. ولم يكن في طباع الشاه ان يتبّوأ صدر الساحة، بل كان يجتنب الاختلاط بالجماهير لكونه متحفظاً شبه خجول.

كان يود ان يكون عاهلاً دستورياً، غير انه لم يضع مرة دستور سنة ١٩٠٦ موضع تطبيق: فالدكتاتورية التي فرضها كانت دونما شك تهدف الى دفع ايران الى الأمام، والتاريخ سيعترف له حتماً يوماً بجهوده المبذولة في سبيل التعليم والتطبيب والمكننة. غير ان مثل هذه المسيرة لا تنجح دون ديناميكية حقيقية تدفعها، والشاه كان مليكاً من الطراز القديم. اما نهجه بالنسبة الى جيرانه العرب فلم يتقبله احد إذ لم يكن مقروناً بمشروع ضخم يخدم مصلحة الشرق عامة. لا شك انه كان يسعى الى انتشال ايران والعالم العربي من غياهب التخلف، لكنه كان يسير في هذا الطريق بشيء من خجل، وكأنه يخشى ان يقول الحقيقة.

كان ضعيف الرؤية باختياره الاميركيين حلفاء. فصداقة السوفياتيين اضمن. لأن الاميركيين يعتبرون انفسهم شركاء لا حلفاء. وهم يتخلون عن الشريك ساعة لا يعودون يربحون من شركته. في الواقع، يعاملون الناس كما لو كانوا اسهماً في البورصة.

هذه هي الأخطاء التي اساءت الى الشاه، لافساده المزعوم، لأن كل شيء يدفعني الى القول بأنه لم يكن فاسداً مفسداً، بل كان ذا نيات حسنة.



قبل انسحاب الانكليز من الشرقين الأدنى والأقصى، كان الشاه قد بدأ يعتبر نفسه «شرطي الخليج» المسؤول عن امنه. وهكذا ففي الحرب التي اندلعت بين الجمهوريين والملكيين في اليمن، ساعدت ايران الامام البدر الذي اطاح به انقلاب عسكري. ففور حصول انقلاب عبدالله السلاّل، الذي ادى الى التدخل العسكري المصري، اتصل الامام البدر بالشاه طالباً مساعدته. استدعاني الشاه وكلفني باجراء اتصال اولي مع الامام لمعرفة حاجاته ومطالبه من اسلحة وعتاد. وبخاصة لمحاولة استكشاف نواياه. وكان هذا النوع من المهمات جديداً علي، اذ طالما آثرت القيام بأدوار في اروقة القصور الملكية وفي دواوين الوزارات والسفارات من تسلق الجبال اليمنية!...

نقلتني طائرة الى جده ومنها استقليت سيارة حتى الحدود اليمنية. وهناك، كان علي ان امشي ليلة كاملة في مغاور الجبل، بمنطقة صعبة المسالك حيث يتعذر حتى استخدام البغال أو الحمير...

اليمنيون ممشوقو القدود، وأجسامهم مفطورة منذ نعومة اظفارهم على هذا النوع من التنقل الصعب. فكانوا يبدون شفقة حقيقية بالنسبة الي. ابطأوا سيرهم لأستطيع مجاراتهم، وبعد مشقة خمس عشرة ساعة استطعنا تسلق الجبل والوصول الى مركز الامام في كهف. قبيل وصولنا، بدلت هندامي وارتديت ثياباً لائقة. لم يكن الماء متوفراً بكثرة فخصصت ما تبقى منه لدي لأغتسل دونما تبذير وتفريط كما تعودته في صحارى المملكة العربية السعودية.

وصلنا الى الكهف الذي جعل منه البدر مركز قيادته وملجأه. وهو فسيح، مفروش بالسجاد الفاخر. وقد اقام الامام مركزاً لمعاونيه مجهزاً بلاسلكي وبمجموعة من الخرائط. فبدا لي لأول وهلة، ولاسيما ان اهالي الجبال قد انضموا اليه، انه يستعد لمعركة حاسمة.

اعرب لي عن حاجياته في حقل التسلح فبدا لي انه ملم بالواقع العسكري وهو الأمر الذي لم اكن اتوقعه لديه. انه لداهية! واللائحة التي سلمني اياها طويلة، والأسلحة، على اختلافها، التي طلبها تتعدى حاجته كما كنا قد قدّرناها.

كنت افهم حاجته الى بطاريات وصواريخ مضادة للطائرات ولكن لِمَ الصواريخ المضادة للدبابات في منطقة وعرة حيث يصعب التنقل حتى على الماعز؟ حقاً، ان مطالب الامام تفوق حاجته الآنية ولا شك انه كان يهدف الى اكثر من استعادة سلطته.

حملت مطالب البدر وعدت الى طهران. وكانت طريق العودة اسهل. فعرضت على الشاه ما رأيته معقولاً في مطالب الامام، ولاسيما في ما يخص المساعدات المالية التي على ضخامتها كانت محقة، اذ هو بحاجة الى شراء دعم الكثيرين.

كل الجيوش بحاجة الى مال. اما تخزين الأسلحة فيشكل خطراً اكيداً، والخوف هو في ان تقع هذه الأسلحة يوماً بين ايدي الأعداء. وافقني الشاه الرأي وبخاصة انه لم يكن هو مقتنعاً بكل مطالب الامام. غير انه كان يعرف اتخاذ القرار المناسب. فلم يتوانَ مثلاً في ارسال طيرانه الى اليمن الجنوبي لمساعدة سلطنة عُمان ابان معركة ظفار. ولاسيما ان القوات الايرانية تدخلت في ظفار ليس لمحاربة الثورة الماركسية وحسب انما ايضاً للقيام بنوع من مناورات حقيقية، مناورات حية. مما يفسر اسقاط طائرة فانتوم في جنوبي اليمن بينما وزراء دول الخليج مجتمعون في مسقط عاصمة عُمان. الشاه الذي كان يسعى حينئذ الى اقناع محاوريه بضرورة توقيع معاهدة دفاع عسكري مشترك وصف سقوط الفانتوم بحادثة حصلت اثناء التمارين. والأمر لم يبدُ مستغرباً. ولاسيما ان الخسائر التي مني بها الجيش الايراني اعتبرت دائماً شراً لا بد منه بل ثمناً لتدريبه وتأهيله.

في هذا الاطار ارسل الشاه حوالى الف مقاتل لمساندة الملا مصطفى البرزاني في اثناء حرب الأكراد ضد بغداد. في هذه الأثناء كانت المدفعية الايرانية المضادة للطائرات تفتح النار من داخل حدودها على كل طائرة عراقية تطالها. فالجيش الايراني كان مزوداً بأسلحة متطورة تتيح له القيام بعمليات تتخطى حدود بلاده. فهو جيش عصري وفعّال اذ يحظى باللوجيستية الاميركية. لذا، يصعب فهم عجزه من التدخل للتصدي للثورة التي اطاحت بالشاه.

الأقليات

أكراد، تركمان، بالوش، عرب.

كلهم ساهم في الثورة وفي قلب النظام. فالناس تنسى ان خمسة وأربعين بالمئة من سكان بلاد فارس هم من الأقليات العرقية، غير الايرانية، وانهم جميعاً معارضون نوعاً ما وبشكل أو آخر للسلطة المركزية. مما يفسر مساهمتهم في انجاح الخميني على كونهم في غالبيتهم سنيين. ولكن هذا ليس اقل التناقضات!

الأكراد هم اهم هذه الأقليات العرقية شأناً في ايران كما في الشرق الأوسط عامة. عددهم يناهز الملايين الخمسة في ايران. ويزيد عن ذلك في تركيا. كما هم مليونان ونصف مليون في العراق ومليونان في سوريا. في ايران يشكلون حوالى الف قبيلة وقد تأثروا بالثورة البولشيفية.

زعيمهم، الشيخ محمود الحافظ، كان يراسل لينين. وقد كبّدهم رضا خان مضايقات لا تحصى حتى انه منعهم من ارتداء زيهم الشعبي. لكن جذورهم العميقة ما كانت لتقطع بسهولة.

بعد اسقاط رضا خان، راح الحزب الديمقراطي الكردي، المتشرب روح الثورة السوفياتية، يطالب باستقلال الأكراد، واستغل الى اقصى حد وجود القوات الانكليزية والاميركية من جهة كما وجود القوات السوفياتية من جهة اخرى. في تلك الحقبة، أعلن قيام جمهورية مهاباد، الهزيلة، بزعامة القاضي

محمد، الى جانب جمهورية ازربدجان. ووقعت معاهدات لضمان استقلال الجمهوريتين بتأييد من بعض الدول الكبرى. ولكن، بعد جلاء القوات البريطانية والقوات السوفياتية سحق الشاه كلتا الجمهوريتين. الحملة ضد ازربدجيان قادها تيمور بختيار قائد السافاك في ما بعد. ففرّ قادتها الى الاتحاد السوفياتي. وبعد أيام، جاء دور جمهورية مهاباد. فأعدم رئيسها القاضي محمد. غير ان وزير الدفاع الملا مصطفى البرزاني استطاع الفرار الى موسكو ولم يعد منها الآ في الستينات ليعطي الثورة الكردية انطلاقة ودفعاً جديدَين.

لا شك ان الأكراد تحالفوا مراراً مع الشاه ولاسيما عندما دعم ثورتهم ضد العراق. لكنهم، بعد سنة ١٩٧٥، اضمروا له كرهاً شديداً اذ انهم اعتبروا أنه اتفق عليهم مع الرئيس صدام حسين. مما يفسر الاتصالات التي قامت بين الحزب الديمقراطي الكردي وبين الامام الخميني اثناء اقامة آية الله في فرنسا. ونلحظ هنا ان الأكراد تخلوا يوماً عن طموحاتهم الانفصالية، واكتفوا بالمطالبة باستقلالية ادارية. وهي لا تخيف احداً.

بعد فترة من الوفاق النسبي بين الأكراد وزعماء الجمهورية الاسلامية، عادت الأمور لتتوتر من جديد، لأن طهران ما كانت لترضى بقيام سلطة اقليمية في وجه سلطتها المركزية.

بعد وفاة آية الله الطالقاني الذي كان على علاقة حسنة بالأكراد، اصطدم هؤلاء مع حراس الثورة ومع الجيش الايراني. وقد حققوا بعض الانتصارات بفضل خبرتهم في حروب العصابات وبفضل الدعم الخارجي. ولاسيما ان علاقاتهم بفدائيي الشعب ممتازة بالرغم من تباين أهدافهم السياسية. وقد يصعب كثيراً على الجمهورية الايرانية سحق الأكراد نهائياً، اليوم، كما في المستقبل.

***

التركمان هم كما الأكراد سنيون. لا شك انهم يطالبون باستقلالية ادارية

ولكنهم يفتقرون الى تنظيم سياسي وإلى قادة يستطيعون جمع شملهم. ناهيك بصراعاتهم الداخلية حول اراضيهم ومراعيهم.

الصراعات بين الفرس والتركمان ترقى الى القرن الحادي عشر. عندما قامت الثورة البولشيفية، ظنوا انه آن الأوان لاعلان استقلالهم. ولكن دون جدوى. فاذا كان الاتحاد السوفياتي يضم جمهورية التركمانستان، فان الايرانيين، هم، سحقوا التركمان في بلادهم. وصادر رضا خان اراضيهم. لكن محمد رضا بهلوي سمح باعادة ممتلكاتهم اليهم. صحيح ان بعض الأراضي اعيدت ابان الثورة البيضاء، غير انها غالباً ما كانت من نصيب انصار الشاه وليس من نصيب التركمان الذين امسوا عمالاً ومزارعين وأجراء في خدمة الايرانيين. وقد عادت مسألة هذه الأراضي الى الواجهة عندما هجر ملاكوها الجدد ايران وفروا الى الخارج.

هناك اذاً مسألة الأراضي المصادرة الى جانب قضايا ثقافية، وبينها مشكلة لغة اضحت شبه سرية، وجذور حضارية لم تضمحلّ. وعندما اثيرت مسألة الاستقلالية الادارية توترت العلاقات من جديد. غير ان التركمان يجتنبون مواجهة مسلحة مع السلطة المركزية، وصورة الخميني ما زالت مرموقة لدى الطبقات الشعبية.

المثقفون الأكراد، وفي طليعتهم وردي أننجاري، يمثلون تياراً أصلب بكثير من التيار المتمثل في القبائل بقيادة رجال الدين. انهم على اتصال دائم بتنظيمات يسارية في طهران والكردستان. وهم، الى جانب مطالبتهم بالاستقلال الاداري يطالبون باعادة توزيع الأراضي، وبتشكيل مجالس علمانية اقليمية. هناك عناصر مسلحة تدعمهم ولكن السلطة المركزية تبدو الآن وكأنها تغض النظر عنهم لانشغالها بالحرب مع العراق.

***

البالوش يتميزون هم باصرارهم على الحفاظ على ميزتهم. بلادهم الفقيرة

التي تتقاسمها ايران وباكستان لا تستطيع إعالة ابنائها فيهاجرون الى دول الخليج العربي سعياً عن عمل. والبالوش، كما الآخرون، تعرضوا مراراً في التاريخ للقمع والاضطهاد. استقبلوا ثورة الخميني فرحين وقابلوها بالترحيب. وقد اختاروا احد زعمائهم الدينيين مولاي عبد العزيز لرئاسة مجلس الخبراء الذي يمثلهم لدى السلطة المركزية في طهران. لكن الصعوبات بدأت عندما أعلن الدستور الجديد ان المذهب الشيعي هو دين الدولة الرسمي. ذلك ان البالوش سنيون. فبعثوا برسالة الى الخميني يعرضون فيها مطالبهم. وتختصر بتعيين حاكم من جماعتهم على بالوشستان، وباخراج المسلمين غير البالوش من مناطقهم بسبب الخلافات المستمرة بينهم، وأخيراً بنيلهم الاستقلال الاداري.

ولكن، بما ان هناك بالوش في الاتحاد السوفياتي وان الطلاب البالوش يسعون دائماً الى دخول الجامعات السوفياتية، فان الحكومة الايرانية تخشى ـ كما الحكومة الباكستانية ـ اغاظة موسكو، فتثير المشاكل في منطقة ذات اهمية ستراتيجية كبيرة الى جانب اهميتها الاقتصادية بسبب وجود النفط فيها. مما يدل ان تعامل الشاه مع الأقليات العرقية في ايران، إن لم يكن سهلاً، فالأمر ليس اكثر سهولة بالنسبة الى الخميني.

***

الخوزستان ـ أو عربستان ـ عرف مشاكل مشابهة لتلك ابان الحرب العالمية الأولى. ففي البدء دعمت بريطانيا الشيخ خزعل الذي أعلن استقلال عربستان الاداري. لكنها تخلت عنه في ما بعد فقهره رضا خان ونفاه ثم أرسل من سمّم له.

كان الجميع قد نسي عربستان حتى العام ١٩٥٨، اذ حصلت انتفاضة الحركة المطالبة بتحريره. فعاد الى الواجهة الدولية والعربية، خاصة، لأن مصر الناصرية كانت على علاقة ودية به. وقد جرت صدامات عنيفة بين سكانه وقوات الشاه سنتي ٦٤ و٦٥.

بين جميع الأقليات، هذه الأقلية اضطهدت اكثر من سواها. ولا يذكر احد ان عربياً اصبح ضابطاً في جيش الشاه يوماً. فأهالي عربستان ذاقوا الأمرين من الوصاية الفارسية فأقصوا عن الوظائف الهامة باستثناء بعض الشواذ. فعبد الأمير خزعل مثلاً، ابن الشيخ خزعل المهزوم، عُين مرافقاً عسكرياً للشاه بتوصية من سيّد ضياء الدين طبطبائي الذي كان يحب العرب. بعد ذلك كُلّف عبد الأمير خزعل بادارة البروتوكول الشاهاني واستمر في منصبه حتى ذهاب الشاه.

كل هذه تفسر نوعاً ما ترحيب الأقليات بثورة الخميني. لا شك انها لم تكن عناصر فعّالة اساسية في الانقلاب السياسي غير ان اللهيب الصاعد ساعد كثيراً في اضرام نارها.

الشاه وجيشه

غالباً ما نلحظ في معظم الأزمات ان الكلمة الفصل هي للجيش. فالجيش المصري خلع فاروق والجيش الليبي قلب ادريس السنوسي والجيش العراقي اطاح بالملكية في العراق. كما ان الجيش الفرنسي اتى بالجنرال ديغول الى الحكم سنة ١٩٥٨.

الجيش الايراني جيش ضخم. سبع مئة الف مقاتل وعشرون الف ضابط. رواتبه مرموقة، عتاده حديث، معنوياته عالية. ولكن، عندما اندلعت الثورة ضد الشاه، لم يسمع للجيش حس. كان عليه منطقياً ان يتدخل لارغام الشاه على مغادرة البلاد مثلاً، أو لاقامة حكم عسكري مكانه. فاعلان حالة الطوارىء كان بامكانه وقف حالة الشغب بسرعة. ولكان شكّل الجيش قيادة من الموظفين والقادة السياسيين كما جرت الحال في اليونان والأرجنتين والشيلي. اما الحجج فهي عينها دائماً: مقاومة الفوضى، تأمين استمرارية الدولة، التصدي للشيوعية. كان ممكناً ان يحصل ذلك ايضاً في ايران ولاسيما ان واشنطن والعواصم الغربية الأخرى كانت تعتبر الامبراطورية الفارسية عنصراً هاماً وأساسياً في مواجهة المد السوفياتي. ولكن الأمور لم تتخذ هذا المجرى.

قبل السعي الى ايجاد تفسير لذلك، سنتحدث عن هيكلية هذا الجيش وعن تطوره بل عن تضخمه. في سنة ١٩٥٣، غداة الانقلاب الذي اعاد الشاه وأطاح نهائياً بالدكتور مصدق، يطغى على الجيش الايراني نوع من حنين الى العظمة

الماضية، تلك التي اضفاها عليه رضا خان يوم طرد رئيس الوزراء مشير الدولة بيرنّيا. كان ذلك في العام ١٩٢٥. يومها، عمل مؤسس سلالة بهلوي على تنشيط الجيش وتقويته واعطائه الأُطر الضرورية. وبفضل ذاك الجيش استطاع ان يوحّد الدولة المنقسمة من جراء الخصومات القبلية. بمساعدة الجيش ايضاً طوّع الاقطاعيين وقمع المتمردين وأخضع الملالي. وبواسطة الجيش قام رضا خان بانشاء سكة الحديد الكبرى وبناء المصانع الأولى وفرض اللباس العصري على الرجال ومنع النساء من ارتداء الخمار. لأن كل تطور بحاجة الى نظام والى قوة لفرضه.

في سنة ١٩٥٣، كان الجيش الايراني الذي اسسه رضا خان على النهج الالماني، يفتقر الى أُطر أو كوادر، والى عتاد. فالبزة التي يلبسها الجندي الايراني هي مخلفات الجيوش الانكليزية والجيوش السوفياتية. اضف الى ذلك فضلات الاميركيين من اسلحة وآليات افسدها الصدأ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية واعتبرها البنتاغون غير آهلة لتستخدم في ساحة الشرق الأقصى. ولكن الشاه استطاع بانتظام وصبر ان يقوي هذا الجيش، وأن يكوّن له مع السنين هيكلية، فجعل منه - بمساعدة الاميركيين - أحد اقوى جيوش العالم من حيث نوعية العتاد.

وهناك مبدأ اساسي ورثه محمد رضا بهلوي عن والده وهو أن لا ثورة ممكنة اذا كان هناك جيش قوي ومثالي. فلا عجب اذاً ان يطلق الشاه - كما هي الحال في الدول الاشتراكية - الجنود الشبان ساعين الى ربح «المعركة» الاقتصادية وقد اطلق عليهم اسم جيش الصحة أو جيش التصدي للأمية أو جيش المعرفة. وشاء الشاه ان يجعل من جيشه العمود الفقري للثورة البيضاء، والبوتقة لأساسات الدولة الحديثة. وهكذا، فان الايراني الشاب كان طوال سنتي خدمته العسكرية يخضع لتدريب قاس ولتعليم حقيقي. حتى انه غالباً ما يصبح ملماً بأسس الميكانيك والكهرباء وأساليب الاغاثة. كان على الجيش ان يساهم في تطوير المناطق النائية. وهذا نهج حكيم. ولكن الذي لا يستطاع فهمه هو ان لا يقوم الجيش - وهو عمود الامبراطورية الفقري - بدوره في الذود عن الامبراطورية.

نشير هنا الى ان الجيش الايراني بدأ يتطوّر بعد عودة الشاه واستتباب الأمر له، اثر فشل انقلاب مصدق. فانصرفت طهران تستدين من واشنطن بفوائد بسيطة جداً اموالاً لشراء الأسلحة. فبين سنتي ١٩٥٣ و١٩٦٧ سلّف الماب (برنامج المساعدة العسكرية الاميركية) الايرانيين اكثر من مليار دولار. ولكن بعد العام ١٩٦٨، استطاع الشاه ان يفي الديون بل ان يصبح الدائن اذ كان يدفع سلفاً ثمن الأسلحة التي يوصي عليها في اميركا. وقد ساهمت هذه الأموال الايرانية في تطوير بعض الصناعات العسكرية الاميركية. ولاسيما في اطلاق المقاتلة «تومكات ف١٤». فالادارة الاميركية كانت مترددة في التوصية على هذه المقاتلة، معتبرة انها مكلفة واذاً غير صالحة للتصدير. غير ان قرار الشاه شراءها، ودفعه ثمنها سلفاً، شجعا الحكومة الاميركية على اجراء طلبية بشأنها لدى مصنعتها، شركة غرومان.

الخطوة التي سجلها الايراني في تجهيزه فريدة. ففي ايام مصدق كانت ميزانية الجيش تشكل اقل من ٢ بالمئة من الموازنة الايرانية العامة. سنة ١٩٦٨، كانت موازنة الجيش تشكل عشرين بالمئة من الدخل الوطني الايراني. اي انها كانت توازي ستة اضعاف الموازنة الفرنسية.

صحيح ان الشاه كان يشتري من الاميركيين الناقلات العسكرية وطائرات التدريب والملالات المجنزرة والمدافع بمختلف عياراتها والصواريخ على انواعها. لكن كان يشتري ايضاً من الاتحاد السوفياتي ناقلات الجند، ومن بريطانيا الزوارق الحربية، ومن فرنسا واسرائيل الأسلحة الخفيفة والالكترونية. ولكن عتاد سلاح الطيران عامة كان يشتريه من واشنطن، فأصبحت العاصمة الاميركية بالنسبة اليه نوعاً من مثل اعلى ومن مستشار اكبر. ولاسيما انه كان يعشق سلاح الجو ويعتبر الطيران الايراني جزءاً خاصاً به، يسهر عليه، ويذهب حتى الى الاعتناء بترقيات الضباط.

كل شيء اذاً يومها على ما يرام والشاه يملك جيشاً قوياً يستطيع صد كل غاز. اضف الى ذلك ان هذا الجيش يوطّد روابط التحالف بين واشنطن وطهران، وتعتبره العاصمة الاميركية رادعاً للطموحات، السوفياتية وسواها.

لكن الذي حصل هو ان الجيش الايراني اصبح جيشاً يمتاز بالتكنولوجية دون سواها حتى ان العتاد اصبح غايته الأولى وهدفه الأكبر، كما هي الحال في الولايات المتحدة. فالجنود يتقاضون مرتبات مرموقة ويقومون بأدوارهم على خير ما يرام دون طرح أي سؤال. ولاسيما الضباط. وهذا بيت القصيد! فسيسعى الشاه ـ ومعه السافاك كما سنراه في ما بعد ـ الى اقصاء الجيش عن كل المواضيع السياسية والحؤول دون حصوله على أهمية سياسية. فالشاه، بعكس والده، لم يكن جندياً وضابطاً قديماً. لذلك كان يبدي نوعاً من الحذر ازاء هذا الجيش ويخشى ان يقوم احد الضباط يوماً، بمساعدة قبيلة ما، بانقلاب عليه كما فعل والده سنة **١٩٢١** عندما ثار على الخدجار. لذلك كان يحرص على ان لا تكون للجنود اتصالات مستمرة بأبناء الشعب. كان يسكنهم في ثكنات بمناطق نائية حيث هم شبه غرباء وحيث يجهلون اللسان المحلي. ابن تبريز مثلاً كان يعين في ثكنة زهدان، وابن قم في مشهد. اضف الى ذلك ان هناك نوعاً من مخابرات خاصة بالجيش (وكالة الرقابة الشاهانية) مهمتها السهر على سلوك الضباط. يديرها الجنرال حسن فردوست ويقدم تقاريره الى الشاه شخصياً. بالاضافة الى هذه المراقبة هناك المعلومات التي تأتي من السافاك في شأن علاقات القادة العسكريين ببعضهم وبالسياسيين. وهذا كله يفسّر عدم طموح هذا الجيش، اذ لا احد فيه او في سواه، يستطيع اي شيء دون الثقة بالنفس وثقة الآخرين به.

هذا الافتقار الى مثل عسكرية عليا، ترك الجيش اعزل تجاه انطلاق التعصب الديني. فالجيش يدين بالولاء للشاه. هذا هو مذهبه الأوحد. الضباط يقسمون يمين الولاء للعرش كأن ليس هناك من تراث يدافعون عنه او من قيم وطنية للذود عنها. لذلك لم يشكل الجيش قوة رادعة في وجه ثورة الخميني، بل بالعكس، ان العناصر العسكرية استجابت لنداءات الامام الداعية الى الاستقالة. وطبيعي ان تؤثر نداءات الخميني في جنود يفتقرون لكل روحية عسكرية. والحجة بسيطة: الشاه هو شيطان. والجنود الايرانيون هم عساكر الله. فعليهم اذاً الالتحاق بمعسكر الله مع اسلحتهم. فرّ كثيرون. وكان ذلك يحصل مراراً من قبل لكن السلطة كانت تتجاهل الأمر وتطمسه. حتى يوم رأس السنة

١٩٧٨ اذ اختفى فوج كامل برجاله الخمس مئة، وأسلحتهم وعتادهم. هذا الحدث الذي حصل في منطقة مشهد كان نوعاً من بدء الختام.

في ادزبجيان، في زغروس، في دتش ايلوت، راح الجيش يتلاشى ويتبخر. ولاسيما ان الجنود المحصورين في ثكناتهم كانوا يشكلون خير مستمعين لنداءات الخميني.

ويبقى السؤال مطروحاً: لِمَ كان الشاه على مثل هذا الحذر تجاه جيشه؟ لماذا جرّده من وسائل الدفاع الوقائية الرادعة؟ هناك جواب اول اسمه تيموز بختيار. ويمرّ عبر السافاك.

***

الجنرال تيمور بختيار اسس السافاك سنة **١٩٥٣**. الغاية من هذه المؤسسة، وتدعى «التنظيم الوطني للأمن والمعلومات» هي التصدي لعودة اي حركة سياسية شبيهة بالجبهة الوطنية، حركة مصدق. مهمتها الأولى هي جمع المعلومات، ولكنها ما لبثت ان اصبحت نوعاً من بوليس على البوليس ومن مراقب خفي لأجهزة الدولة. وكان الشاه يعنى شخصياً بتعيين رئيس السافاك ويعطيه رتبة نائب رئيس وزراء.

في كل الأحداث الهامة أو السرية التي تخص الدولة كان للسافاك إس أو يد. هذه اليد لمسناها في جنيف ابان اللقاء الفاشل بين العراقيين والايرانيين. ولمسناها في الجزائر سنة **١٩٧٥**. وللسافاك كلمة في شؤون الجيش وفي موضوع ترقية كبار الضباط وفي تصنيفهم بموجب مقومات ولائهم للنظام. فلا عجب اذاً ان تصبح السافاك، منذ اواسط الستينات، نوعاً من دولة ضمن الدولة.

تيمور بختيار كان اول رئيس للسافاك. وهو رجل شعبي متحدر من قبيلة بختيار التي تعد في المنطقة اكثر من ثلاثة ملايين نسمة. والرجل كريم وذو شعبية واسعة بفضل شجاعته وأنفته. كان يجمع بين شخصيتي المرتزق والفارس، وقد

يضحي بكل شيء لوعد يقطعه أو للابهة. والى جانب ذلك كان على علم بكل شيء. كان يذهب الى اتخاذ المقررات ولفظ الأحكام بوحي من ذهنيته البدائية والفعالة في آنٍ معاً. وذلك في سبيل الخير أو الشر على السواء. وأصبح صاحب سلطان كبير في الجيش. هالته كانت تشبه هالة عبد الناصر وكان الضباط الشباب شديدي الحماسة له.

لكن الجيش بدأ يتقاعس. كأنه مستاء من عدم اشراكه في الانتفاضة الكبرى التي هزت العالم العربي غداة الحرب العالمية الثانية، والتي لم تغب عنها الامبراطورية الايرانية اذ تحولت سلالة خدجار الى دكتاتورية حديثة. هل بالغ الشاه في تقدير السلطة المتزايدة التي كان يتمتع بها الجنرال؟ هل كان يعتبر موقفه تآمراً أو بدء تآمر؟

لا شك ان تيمور بختيار كان جلوباً يحب الظهور. ولا شك ايضاً انه كان يستطيع تجنّب الانتقادات التي يوجهها لأسرة الشاه وحاشيته. كان نسيباً للامبراطورة ثريا التي طلقها الشاه اذ لم تنجب له ولياً للعهد. وقد صدف طلاق ثريا مع استغناء الشاه عن خدمات بختيار. هل تآمر حقاً؟ اقاله الشاه سنة ١٩٦٧. سلخ عنه صلاحياته وأقصاه من قيادة السافاك، كما عزل الجنرال عبدالله هدايت. زجّ هدايت وعلوي كيا رئيس المكتب الثاني، في السجن، في برج. وقد مات هدايت في السجن، فيما كيا قضى خمس سنوات فيه. اما بختيار فاستطاع أن يفر.

اقام بختيار في جنيف. وظل على شبه اتصال بالشاه. وأبدى الشاه استعداداً للعفو عنه، وأذن له بالعودة الى ايران شرط ان يوقف نشاطه المعادي للامبراطورية، وأن يقطع علاقاته مع اوساط المعارضة. وبتوصية من عباس مسعودي كلفني الشاه بنقل رسالة اليه.

التقيت بختيار في جنيف وأعلمته بأن الأوضاع صارت مؤاتية له. لكنه قد سئم الشاه ولم يعد يستطيع أن يسمع به. وأثار امامي ما اسماه «الفشل الشاهاني». فالشاه يعيش معزولاً عن شعبه، والثورة البيضاء في خبر كان، وسيأتي

يوم حيث ستجري انتفاضة تبدو ازاءها حركة مصدّق نوعاً من مداعبة وعبث. وأشار بختيار الى محاولات ثورية ينظمها الشيوعيون، من شأنها ان تطيح بالأخضر واليابس، وتفجّر كل شيء كما البركان. امّا هو فيعتبر نفسه الرجل الأوحد الذي يستطيع الوقوف في وجه كل ذلك. الجيش يثق به، الشعب يحبه، وهو يستطيع تخليص ايران من الشيوعية والفوضى.

انتهت المقابلة اذ رفض بختيار الاستماع الى اكثر، ثم انه سافر الى بغداد ومنها يعد لتشكيل معارضة قوية في وجه نظام الشاه، وهو عارف انه سيلقى لدى الزعماء العراقيين اذناً سميعة.

لكنه اوقف في لبنان.

سعى الشاه الى الافراج عنه أو بالأحرى استلامه مقابل مليون دولار قدمت لزوجة رئيس الجمهورية آنذاك شارل حلو. عبثاً حاولت اقناع الشاه بعدم القبول بمثل هذه العمليات التي تسيء اليه والى سمعته. فدفع المبلغ، ووعدوه بتسليمه تيمور بختيار. لكن زعيم السافاك السابق ما كان ليُقبض عليه بسهولة. فقبيل نقله الى ايران، استطاع بمساعدة حراسه ان يهرب. وتوجه الى بغداد حيث باشر نشاطاً كبيراً ضد الشاه. كان يلتقي اناساً كثيرين معارضين ومشاغبين. الجميع متفق معه على اسقاط الشاه. الى ان اتاه يوماً معارضان يحملان مخططاً واضحاً لعمليات انقلابية. غير ان المشروع كان بحاجة الى دراسة عميقة وتحضير. وتكاثرت الاجتماعات واللقاءات، وأصبح الرجال الثلاثة اصدقاء يذهبون معاً الى الصيد. وهنا الخطأ الفادح. ففي رحلة صيد، وجّه المتآمران بندقيتيهما نحو بختيار وأطلقا النار عليه. وعرف في ما بعد انهما كانا عميلين للسافاك. اما بختيار فذهب ضحية لامبالاته المعهودة. وتوفي في المستشفى بعد اسبوعين.

خلف بختيار في رئاسة السافاك الجنرال حسن باكراوان. وكان رجلاً حكيماً حذراً يجري تحقيقات دقيقة في شأن المخبرين الذين ينقلون اليه معلومات عن المتآمرين قبل اتخاذ اي اجراء بحق المتهمين بالتآمر. هذه الفطنة جنبته اخطاء عديدة، وفي ايامه امست السافاك تنظيماً بوليسياً سياسياً لا اداة قمع ضارية. لكن

الأمور جرت بعكس ذلك في عهد الجنرال نعمة الله نصيري الذي اصبح زعيم السافاك حتى سنة ١٩٧٨ . كان قبل ذلك مديراً للبوليس كما كان من كبار قادة الحرس الامبراطوري. وقد استغل ثقة الشاه ليجعل من السافاك آلة لمآربه الشخصية ولنيل الجاه والعظمة.

وعَوْد الى الجنرال باكراوان الذي عرفته عن كثب. كان مثقفاً يجيد الفرنسية والانكليزية والالمانية. وهو من والد ايراني ومن والدة فرنسية. لم يكن يعتبر مهمته في المخابرات وسيلة للقمع والسيطرة بل بالعكس كان رجل تفهم وحوار. عرف الخميني في العام ١٩٦٠ وأصبح صديقاً له. وهكذا بذل كل جهده لتخليصه. فهو الذي اتاح للخميني مغادرة ايران سنة ١٩٦٢، بعد محاولة الانقلاب الفاشلة.

عندما عاد الامام الى ايران بعد اسبوعين من سقوط الشاه، ظن الجميع ان باكراوان سيصبح يده اليمنى في الحكم وربما رئيساً للوزراء. غير ان آية الله زج في السجن ذاك الذي خلصه من الموت. فتوجهت زوجة باكراوان مع بعض اقربائه لدى الخميني لتذكيره بالخدمات التي كان الجنرال قد قدمها له. فاعترف الامام بأنه مدين لباكراوان ووعد بأن يحظى الجنرال المعتقل بمحاكمة عادلة امام محكمة اسلامية شريفة.

... في اليوم التالي اعدم باكراوان رمياً بالرصاص. وألقيت جثته في خندق النفايات. في تلك الأيام، كانوا يعدمون الشيوخ الطاعنين الذين جاوزوا التسعين ويقتلون الفتيات اللواتي لم يتجاوزن العاشرة، ويخلطون بين المتهمين (لقد اعدموا رجلاً عوضاً عن ابنه ظناً انه الابن لكنه لم يفد بكلمة وقبل بالموت لتخليص ولده). الخميني حاول مراراً تحميل بازركان أو بني صدر مسؤولية هذه الجريمة التي كان يسعى الى التنصل منها.

***

ايام نصيري، اصبحت السافاك قوية بطّاشة، حتى انها باتت تسيّر شؤون الدولة والوزارات. بعض الضباط فيها كان يدير المصانع والصحف وبرنامج الاصلاح الزراعي. بارفيس سابيتي كان مكلفاً بشؤون الصحافة والاعلام. وكان يرجف الصحافيين.

في ايام نصيري عرف الشاه سنواته السود اذ كرهه الجميع. وتحت وطأته ولّت آخر معالم التحرر الذي تميزت به الحياة الثقافية في طهران من قبل. لم يكن احد يرتاح كلياً الى وجوده. وأنا شخصياً، بالرغم من مهماتي الرسمية كنت اشكو من نصيري الذي لم يكن يروق له ان استقل الطائرة وأتنقل بين دول الخليج العربي وأوروبا دون ان اتوجه اليه بطلب جواز سفر. كان يكره العرب والمسلمين. وكسب عداوات لا تحصى. هو الذي فرض على الشاه تعيين الكولونيل منصور قدَر سفيراً في لبنان. وكل مؤهلات قدر «الدبلوماسية» انه ضابط في السافاك. فهو يجهل مبادىء الدبلوماسية الأولية. والى ذلك، كان على خلاف حاد مع الفلسطينيين. لا بد اذاً من ان يجعل تعيينه علاقاتنا، مع العرب، اصعب. لكن الشاه رفض السماع اليّ، وقد اضحى نظامه آنذاك بوليسياً بالمعنى الأكمل. لكن نصيري لم يعرف حدوداً لتجاوزاته، فاضطر الشاه الى عزله سنة ١٩٧٨.

وبعد ثمانية عشر شهراً أعدمه حراس الثورة.

وبالرغم من هذا التصلب وهذه الرقابة وهذه التحريات في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية، فلم تستطع السافاك ردّ الضربة الموجهة الى السلطة سنة ١٩٧٩. ذلك لأنها اصبحت بيروقراطية رازحة تحت نير الرتابة الادارية.

كان الجميع يظن ان الخطر المنتظر آتٍ من اليسار، من ثائر على غرار مصدّق. ولكن لم يأتِ على بال أحد ان شيخاً مسنّاً سيفجرّ العاصفة.

ثورة الخميني

بالنسبة الى الكثير من المراقبين، ان الثورة الاسلامية شذّت عن الغاية المرجوة. أما ان ينتظر منها المسيرة تحت راية الأمجاد الغابرة، فالتحديث والانفتاح على الغرب طريقان غابا عنها.

التحديث! هو مصطفى كمال (اتاتورك) الذي رفع هذا الشعار لأول مرة، وأمسى مدرسة. وقد أثار الشعار موجة عارمة من الحماسة القومية ويقيناً في التقدم ما لبثا ان نقلا عدواهما الى انحاء العالم كافة.

فمن هذا النموذج استوحى جمال عبد الناصر، ومنه استوحى العقيد معمر القذافي، ومنه ايضاً الرئيس صدام حسين. اما السعي الى النجاح في هذا الطريق الشائك، والمحفوف بالمخاطر، فلا بد من الحصول على تأييد شعبي واسع، في اوساط الشباب خاصة. ولا بد من الابتعاد عن الغرب مع ضرورة الاستفادة من دروسه. وهكذا فان الأنظمة العربية من عبد الناصر الى صدام حسين مروراً بالبعث العراقي والبعث السوري تمسّكت بنموذج المجتمع «التوتاليتاري»، وهو الأقل صواباً في نظر الديمقراطيات الغربية.

ولكن هذه النظرة الرومانسية، الجامدة، مهما اختلفت طرق التعبير عنها، تبيّن مدى الحماسة التي تهيمن على تفكير العالم العربي. فمن اغادير الى بغداد، تنفح موجة الحماسة عينها. والعالم العربي يفيق على المشاعر عينها. فهو

يبحث عن نموذج اصيل مستقل عن موسكو والغرب يجهلهما جميعاً. مع ان الميل الى الأفكار اللينينية كان كبيراً وقد أثر في الكثير من المفاهيم. وهكذا فان زعماء العالم العربي مشوا في الطريق الذي سبقهم اليه الالمان والايطاليون واليوغوسلافيون. والأنماط الاقتصادية التي سادت بعد الحرب ما لبثت ان فشلت في الستينات. وحدها عائدات النفط شكّلت البديل، ناهيك بالمساعدة الاميركية الهامة التي كانت ابرز الدول المستفيدة منها اسرائيل ومصر والأردن.

لكن نموذج الاقتصاد القومي ولّى بالرغم من ضرورة العودة الى نهج الربح المنبوذ الذي تعتمده الرأسمالية.

القومية العربية تعيش اذاً فترة خيبة، وهي خيبة تزداد مرارتها عندما ستلجأ اسرائيل - كما اسياد الأمس - الى لعبة المرآة لتعكس للعرب صورة مساوئهم وعوراتهم - عندها، لم يعد هناك سوى مخرج واحد بات بمثابة ملجأ وملاذ وهو العامل الديني، هذه «الهوية الاسلامية» التي تتيح الثروة النفطية للأنظمة العربية الأكثر تقليدية رفع شعارها عالياً. الهوية الاسلامية هي الفرصة الأخيرة والقيمة التي لا يمكن التقليل من قدرها. وقد ساهم افلاس النماذج الأخرى في مزيد من المراهنة عليها.

... ايران لم تكن بمنأى عن الانفجار الاسلامي. وانتصب الخميني ضد الشاه كما وقف عبد الناصر في وجه الانكليز والأوروبيين عامة.

الدعوات الى الاسلام والقول باسلام نقي اصيل كثرت في الأربعينات. فالأخوان المسلمون شكّلوا ضد الملك فاروق الحركة المعارضة الأكثر اهمية في مصر. ولما كان عهد فاروق كثير المساوىء، فقد استمدت حركة الأخوان المسلمين شرعية حقيقية من مناداتها باحلال عدالة اجتماعية واسعة. غير ان الذي يصعب تفسيره هو ان تواصل حركة الأخوان نشاطها الثوري فيما بعد، وضد جمال عبد الناصر الذي قام بدوره ضدها فاعتقل قادتها وأعدم بعضهم.

أما ما هو الهدف الذي وضعه الأخوان نصب ايعنهم؟

- لقد كانوا ينادون بأصولية لا تشوبها شائبة، وهي ترفض كل تحديث وتنبذ كل فرنجة للعالم العربي. كانوا يعتبرون الطريق الذي شقّه اتاتورك للمسلمين نوعاً من انحطاط. ذلك انهم يجدون الحلول في القرآن فلا جدوى اذاً للبحث عنها في مكان آخر.

وهذا هو الموقف الذي يقفه بالضبط آية الله الخميني اليوم.

صحيح ان الأصولية الدينية برزت في بعض الظروف في اواخر الستينات ولاسيما بعد حرب الأيام الستة. فالملك فيصل بن عبد العزيز وجّه دعوة الى التضامن الاسلامي. والعقيد معمر القذافي اسس نظامه على ركيزتين اسلامية واشتراكية. والمناضلون الأفغان اعلنوا الجهاد لصد الغزاة السوفياتيين. وكل القادة العرب استعانوا بالاسلام يوماً، كما استنجد موسوليني أو فرنكو بالكنيسة. ولكن الخميني هو الوحيد الذي جعل من الاسلام نهجه الأوحد فوضع فيه رؤ يته الشاسعة للكون وحصرها به من ألفها الى يائها.

اما النجاح الذي حققته هذه العودة الى الأصول الدينية ليس في ايران وحسب انما في الدول العربية ايضاً، فلا يمكن تفسيره فقط بالفشل الذي منيت به كل اشكال الحل السياسي. انما يبرهن ايضاً ان الشرق الأوسط الذي قطع اواصره مع تركيا منذ العام ١٩١٨، ما زال يبحث باصرار عن النواة التي تطول عليه ولا يعثر عليها.

***

روح الله موسوي رجل شبه اسطوري أو قل انه رجل يسعى الى احاطة نفسه بهالة اسطورية. انه الفقير الذي يقطن المسجد مفترشاً الأرض. انه الشيخ الشاب الذي يقتدى به والذي يدرس الفلسفة الاسلامية بحماسة. لقد اجتاز باكراً «محلّة السطوح» وهي الدرجة التي تجيز معاونة الشيخ المعلّم. الى هنا ليس في الشاب الذي سيصبح آية الله، ما هو خارق للمألوف. ولكن هناك علامة فيه

كأنها يد القدر. فوالد الخميني - ذلك ان روح الله موسوي سمي في ما بعد بالخميني نسبة الى بلدته - قتل على يد الشرطة بينما كان يدافع عن الفلاحين ضد الاقطاعيين. فأضحى الخميني وكأنه منذور للثورة. بل انه صار نوعاً من خميرة ثورية. وعندما كان يلقي خطبة في مكان عام وهو في الحادية والعشرين من عمره، تداهمه شرطة رضا خان وتوقف كلامه وتعاليمه التي يتهافت الكثيرون لسماعها.

ينتمي الخميني اذاً - وهذا قبل ان يتربع محمد رضا بهلوي على عرش الطاووس - الى الاتجاه المتصلب بين رجال الدين الشيعة. وقد نما هذا الشعور المعادي لأسرة قاجار قبل ان يتصدى لسلالة بهلوي - لأن المشايخ الشيعة يخوضون ضد السلطة الزمنية حرباً لا نهاية لها اذ يجب - في رأيهم - ان تكون السلطة الزمنية لهم. واذاً يجب ان تنحصر في الأئمة، لأنهم من سلالة الرسول. وما الملوك والأمراء في نظرهم سوى مغتصبين.

اسطورة الخميني اذاً ذات بذور كامنة في العرف الايراني قبله. والى ذلك فهو رجل فاضل، وعادل، وابن شهيد. فقد بدأت افكاره تنتشر قبل ان يضع كتابه «تحرير الوسائل» في الحكم الاسلامي. كان لا بد اذاً من حدث بارز يدفع به الى الواجهة ويرفعه الى القمة. الى ان حصل حادث عادي، يشبه الفضيحة، جعل الخميني شهيراً في انحاء ايران كافة.

***

الضغوط التي يمارسها رجال الدين ملموسة في الحياة السياسية الايرانية منذ اقدم العهود. وسنكتفي هنا بنظرة خاطفة الى الوراء لنرى ذلك. نذكر كيف امم الدكتور مصدق النفط الايراني ونذكر كيف ان الرئيس ايزنهاور افتعل قضية «اجاكس» مع آلان دالس في سبيل اعادة السلطة الفعلية الى الشاه:

هذه الاضطرابات السياسية بدأت باغتيال الجنرال رزمارا، والوضع الناجم عن ذلك حمل الشاه رغماً عن نفسه على تعيين مصدق رئيساً للوزراء. ذلك

ان الضغوط التي مارستها الأوساط السياسية والدينية كانت كبيرة جداً بحيث لم يبقَ لدى الشاه سوى الخيار بين اثنين: الرضوخ أو التنازل عن العرش. فجاء اغتيال الجنرال رازمارا ليفجر في المدن الكبرى القوى المناهضة للشاه، والتي تختمر الروح الثورية فيها منذ نهاية الحرب.

ولكن، من اغتال الجنرال؟ هل هو شيوعي؟

- بالعكس. اغتاله رجل دين، هدفه المعلن وضع السلطة الفعلية بين ايدي رجال الدين. كان آيات الله يعتمدون على مصدق لتنفيذ سياستهم، لكن مصدق تقدمي وعلماني. وهذا ما يفسر عدم قيام ثورة عارمة اثر سقوطه. كأنما شعر آيات الله ان الاصلاحي الكبير الذي رفعوه الى السلطة خانهم.

***

في العام **١٩٥٣** - ايام مصدق - كان الشاه يفكر في الهرب الى روما ويستبعد لذلك فقام بزيارة بوروجردي احد كبار آيات الله لاستشارته. والخميني من تلامذة آية الله بوروجردي. دخل الشاه عليهم والجميع جالسون على سجادة يتحادثون فوقفوا لاستقباله. الا الخميني بقي في مكانه متحدياً بنظراته الثاقبة استاذه وعاهله على السواء.

منذ تلك الحادثة اصبح الخميني محط الأنظار. ويوم توفي بوروجردي سنة **١٩٦١**، كان الاسم الذي يردده الناس تحت قبة اكبر المساجد الايرانية اسم الخميني.

لم يكن آيات الله على وفاق مع السلطة السياسية غير ان الشاه اغدق عليهم العطايا والنعم فهادنوه. ولما كانوا ذوي سلطان روحي وزمني في آن معاً، فقد عرفوا كيف يتعايشون مع السلطة الراهنة. وحده الخميني ظل يرفض سلطان الشاه ولقد كافح بضراوة واستمرار ضد هذا السلطان. انه من طينة الثوار، مؤمن بالرسالة الثورية لدى الأولياء، يعرف كيف يستخدم سحر الكلمة وقوتها.

في العام ١٩٦١ وزع نص خطاب ألقاه في جامعة طهران في اكثر من مئة الف نسخة. فسجّل يومها انتصاراً ملموساً. فحتى ذاك اليوم، كان الطلاب يهزأون برجال الدين ويعاملونهم باستخفاف وازدراء. لأن رجال الدين في نظر الطلاب يجسدون الرجعية، والقرون الوسطى، والجهالة. اما الآن، فقد اصبح الخميني زعيم المعارضة السياسية التي لم يكن لها وجود ملموس خارج اطار حزب مصدق. وبدأ السافاك ينظر اليه بجدية.

فقد بدأت اسطورته تنتشر. رجال الدين يرون فيه نوعاً من امام منتظر ومن نبي جديد. دخل السجن ونفي، ولكنه اكمل طريقه دونما تلكؤ. لقد اصبح محط انظار الحركات المعارضة للشاه تلك التي ذاقت الأمرّين من السافاك. ذلك ان الجماهير تبعته، ولطالما رفضت اللحاق بالثوريين الآخرين. ومنذ سنة ١٩٧٠ اختار الحزب الشيوعي، توده، الخميني حليفاً رئيسياً له. فهذا الحزب الذي هو الأشد صلابة والأكثر اعداداً بين جميع الأحزاب المعارضة كان قد تلقّى من السافاك ضربات اليمة. حتى ان كوادره هجّت وهاجرت الى جميع انحاء الشرق والغرب. غير ان القاعدة اللوجيستية في الحزب تمركزت في المانيا الديمقراطية، حيث الخط الماركسي هو الأشد تصلباً بعد موسكو. وبانتقال أطره الى الخارج قطع توده صلته مع الكفاح المسلح. بعكس مجاهدي خلق. ولكن توده لم يكن ينشد البطولات. وكل ما يصبو اليه هو الفعالية. فقد ظل محتفظاً ببعض الخلايا داخل الجيش. وهي تضم عدداً من الضباط الذين استمروا في نشاطهم بحذر كبير ولكن دون ملل. فحزب توده أثّر ـ كما في كل انحاء العالم الحر ـ على المثقفين بفضل تفسيره الماركسي للتاريخ، وهو التفسير الذي جاءت الأحداث في اغلب الأحيان لتفحمه، أو لتكون تكذيباً له ساطعاً. فالتاريخ يفسر كل شيء بما في ذلك اخطاء الأنظمة الشيوعية. ففي ايران يسمح بتقويم موضوعي لنظام الشاه ويعتبره مرحلة في الطريق الى المجتمع الخالي من الطبقات. كما يعتبر ان الخميني ايضاً مرحلة في هذا الطريق، اذ يساعد على الاطاحة بالشاه.

أما الخميني، فقد رأى فيه محمد حسنين هيكل ملامح الزعامة وهالتها، لأنه يجيد مخاطبة الجماهير ويمتلك موهبة الفلاسفة والمنظّرين. انه يختزل الأفكار

المعقدة ويردها الى عناصرها المبسّطة. في كتابه عن الجمهورية الاسلامية يعالج الأفكار الأكثر تقدمية والأكثر ثورية حول الامبريالية واستغلال الانسان للانسان وكرامة العمل داعماً نظريته الملأى بالصيغ الشفافة بآيات كريمة. فعندما يحمل على الاغتصاب للحكم الذي يمثله في رأيه نظام الشاه، يستشهد بالآية القرآنية: «قالت إن الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا أعزة أهلها اذلة وكذلك يفعلون» (سورة النمل). وسواء تكلم عن الولايات المتحدة أو عن اسرائيل فانه يدعم اقواله بحديث نبوي شريف. اما نظرته الى العالم فكامنة بكاملها في مقدمة الدستور الاسلامي، وهو الذي يأتي بنظام جديد للكون:

«هذا القانون الدستوري الذي يعتبر مضمون الثورة الاسلامية حركة لنصرة الضعفاء على الأقوياء، يرسي اسس استمرار الثورة في داخل البلاد وفي خارجها، ولاسيما في ميدان العلاقات الدولية، بالتعاون مع حركات اخرى اسلامية وشعبية. وهو يحاول تعبيد الطريق لانطلاقة امة اسلامية موحدة وعالمية».

هنا نفهم مدى الاغراءات التي تمارسها مثل هذه الرسالة ليس على «المستضعفين» والجماهير الكادحة وحسب، وانما ايضاً على اوساط المثقفين الذين يرون ان كل ثورة، مهما كانت، هي رد على الاغتصاب والظلم.

جرت الرياح كما تشتهي الخمينية، فلاقت الصدى والتجاوب اللذَين يمثلهما الطلاب والمثقفون والصحافة والتلفزيون. الى جانب ضعف جيمي كارتر وقصر نظره.

ولكن، لا بد من عودة قصيرة الى الوراء. الطلاب، مثلاً، كان لا بد ان يشكلوا العمود الفقري للبلاد. لذلك لم يبخل الشاه عليهم بالمنح والمساعدات لمتابعة دروسهم في الخارج وبخاصة في فرنسا والولايات المتحدة. كانوا يستفيدون من هذه المساعدات ليصبحوا اطباء ومهندسين وأساتذة جامعات. لكنهم بعد انهاء دراساتهم لم يكونوا يعودون الى ايران بل كانوا يؤثرون الاقامة في احياء باريس الراقية والغنية، مقتنعين بأن لا تقدم ممكن في ايران، وأن بلادهم مهما علا

شأنهم فيها سيكون مستقبلهم فيها دون مستوى حياتهم في فرنسا أو اميركا. اما الفاشلون في دروسهم فكانوا يعودون الى ديارهم وقد كسبوا من مرورهم في الجامعات الغربية اسس الجدلية الماركسية، بمسلماتها غير القابلة للجدل، وبرفضها اي تفكير آخر. وهي هذه النفسية التي سيحرّكها الخميني في ما بعد بثقة تضاهي ثقة ماو تسي تونغ واعتداده.

لا شك ان الفكر الغربي والجامعات الغربية والصحافة الغربية أعطت اليسار المشرقي عامة تنازلات هامة أمست بمثابة منبع تخريب، ومشتل افكار ستنمو وتساهم في اسقاط الشاه عن سدة عرشه.

المثقفون، واليساريون منهم خاصة، مجّدوا الخميني وبخّروه وعظّموه قبل ان يحمل عصاه ويعود الى ايران. فالمفكر المصري انور عبد الملك تحدث عن حركته فوصفها بالتاريخية الضخمة ووضعها في قلب حركة التحرر الوطني متنبئاً بأن «اطارها سيصبح عالمياً». الكاتب اللبناني منح الصلح ركز على الاختلاف الجذري للمعنى الذي يكتسبه الاسلام بالنسبة الى الطبقات الحاكمة والطبقات الثائرة. الشاعر السوري ادونيس التي تنتصر قناعاته باستمرار من جهته لم يرَ سوى ثقافة واحدة للجماهير العربية: الاسلام. الاسلام الأصيل لأن تحديث الشرق ظل خارجياً وسطحياً.

في فرنسا، وفي خارجها ايضاً، ارتفعت اصوات تشيد بالخميني، ولاسيما في جوقة اولئك الذين طبّلوا بالأمس «لعبقرية» ستالين، ولسمو افكار ماو تسي تونغ ولفيديل كاسترو وسواهم. بالطبع، كان صوت غارودي بين هذه الأصوات. في اميركا كانت هناك ايضاً جوقة مطبلين لمزايا زعيم ايران الجديد. وقد ذهب سفر سوليفان (لحساب من يعمل؟؟) الى التغني بانتصار الخميني على صدام حسين ثم وضعه في قلب «حزام شمالي يتركز على ايران وسوريا والعراق، ويقسم علائق ودية مع تركيا، ويكوّن كتلته في وجه الاتحاد السوفياتي اكثر فعالية من قوة الانتشار السريع الاميركية». مقال سوليفان الذي صدر في «بالتيمور سان» سنة ١٩٨١، يبرهن بشكل واضح ان الولايات المتحدة كانت يومها قد ايقنت بأنها خسرت

ايران، فبدأت تبحث عن ذرائع لتفسير ذلك.

منذ ١٩٧٨، بدأت في الولايات المتحدة حملة اعلامية سعت الى اعطاء صورة عن الخميني تتلاءم والمقاييس والمُثل الاميركية - غير ان الأحداث والوقائع أتت بمثابة صفعة موجعة للمفاهيم الديمقراطية ولحقوق الانسان، فلم يبقَ سوى العداء للشيوعية. وقد تمسك سوليفان بهذا الجانب وظل يكتب عن الخميني في بالتيمور، محاولاً التأثير في البرجوازية الاميركية التي هجرت نيويورك، والتي لا يستهان بنفوذها في الضفة الشرقية اقتصادياً وسياسياً.

***

هناك احداث محض ايرانية حصلت، بل محض طهرانية، منها انضمام «البازار» الى صف الخميني منذ سنة ١٩٧٧.

البازار مجمّع ضخم من الحوانيت والدكاكين التي تمتد كأسواق دمشق على مئات الهكتارات. وعقلية البازار - بل نفسيته - تتميز بالمعارضة الدائمة. كما كانت عقلية الأسواق الشعبية الباريسية في القرن الماضي، وهي مناهضة لكل تحديث.

ظل البازار زماناً طويلاً رئة ايران الاقتصادية، الى ان انتزعت منه الأسواق الكبرى والشركات العالمية هذا الامتياز. ففي الواقع، كان البازار مركز معارضة مستمرة للحكم في ايران وبخاصة لسلالة بهلوي، بسبب اندفاعها الى الاصلاح. كان البازار بحاجة الى المفاهيم التقليدية والى مساوماتها ومصارفها للاستمرار في العيش. كان بحاجة مثلاً الى هذا التواضع الظاهري لدى التجار في حوانيتهم الصغيرة، وهم يتعاملون مع ملايين الدولارات شفهياً ودون اي صك أو وثيقة غير خائفين من اي تدخل خارجي في اعمالهم.

تحديث ايران كان يعني على المدى الطويل اختفاء البازار كما اختفت في باريس الأسواق القديمة (الهال). في البازار كان بامكان الجميع شراء ما شاءوا من

سلع . فالمحاولات الصغيرة اليائسة التي قامت بها الادارة ايام الشاه لتنظيم البازار ووضع حد ادنى من الترتيب في هذه «الدولة ضمن الدولة»، اعتبرت نوعاً من عدوان بل من شن حرب حقيقية . لأن التنظيم هنا معناه فرض الضرائب .

اما الخميني فكان يمثل بالنسبة الى زعامات البازار عكس ذلك بالضبط . انه يمثل العودة الى العادات والتقاليد القديمة، بل مبدأ الحرية المطلقة للتجارة، تلك التي لا تستطيع وزارات المال عرقلة مسيرها، ولا تنافسها الأموال الاميركية بشركاتها، ومحلاتها الكبرى ومؤسساتها الضخمة .

بأموال البازار استطاع الخميني مدّ ثواره، وبالتبرعات التي كان يجمعها انصاره ـ الذين اصبحوا فيما بعد حراس الثورة ـ تمكّن من طبع المنشورات والملصقات ومن توزيعها . وقد استطاع من ناحية اخرى اهل البازار تكوين فكرة عن الثورة الاسلامية منذ سنة ١٩٧٩ . ولاسيما عندما شرع المستشارون ـ وهم نوع من مجالس تشبه مجالس السوفيات ـ يتقاسمون بينهم ممتلكات تجار البازار وبيوتهم ومؤسساتهم، حسب مبادىء الادارة الديمقراطية .

وهؤلاء الذين صودرت مصانع سجادهم، ومحترفاتهم، ومشاغلهم، ومحلات صياغتهم، هم اعينهم الذين كانوا يبتهلون الى الله، بما اوتوا من ايمان، ليدمر النظام الشاهاني ويعيد جنة الماضي بألوانها الشيعية .

***

وكما هي الحال، عندما تتعارض الأنظمة جذرياً على الصعيد الايديولوجي، فان علاقات ايران مع الاتحاد السوفياتي كانت طبيعية في عهد الشاه، الى حد نستطيع القول انها كانت جيدة ؛ فقد كان الشاه يبيع موسكو النفط النابع من آبار الشمال. وهي الآبار عينها التي حاول السوفياتيون السيطرة عليها في نهاية الحرب العالمية الثانية .

السوفياتيون، كما هي عادتهم، لجأوا الى طريقة المقايضة . فاستجابوا الى

طلبات الشاه من معدات وآليات يزودونه بها كلما دعت الحاجة . والديون للسوفياتيين تراكمت بشكل كبير كاد يخنق الشاه، مما يفسر نوعاً ما عدم لجوء موسكو الى شن اي هجوم عليه طالما ظل قوياً . ولكن الذين لا يعرفون السوفياتيين عن كثب يعتقدون انهم تكيّفوا وجارهم المزعج . غير انهم كانوا يتحملون على مضض وجود الرادارات الضخمة المتناثرة على الحدود مؤلفة نوعاً من حزام حقيقي، في الحدود بين ايران وتركمانستان خاصة، مما يتيح لجيش الشاه ولمستشاريه الاميركيين مراقبة حركة الطيران السوفياتي . فساعدوا العراق ضد ايران طويلاً . ولعلهم مستمرون . ولم يروا بعين الرضا التقارب الذي حصل بين بغداد وطهران غداة توقيع اتفاق الجزائر سنة ١٩٧٥ .

ولطالما تصدى الشاه لمحاولاتهم زعزعة اليمن أو عُمان أو بشكل عام مجمل مناطق القرن الافريقي . فالشاه يمثل عقبة في وجه نوايا موسكو التوسعية . ولا غروّ ان لا تنتظر موسكو طويلاً بعد سقوط الشاه لتغزو افغانستان وتفرض نظامها فيها . ولكنها ابان ذلك اعطت توجيهات لزعماء حزب توده لدعم الخميني دونما تلكؤ في استفتائه حول الجمهورية الاسلامية .

ولكن، عندما ظهرت فكرة الاستفتاء، كانت الأحزاب اليسارية التي هللت لسقوط الشاه قد رفضت تأييد دستور جديد يمثل استبدال طغيان بطغيان آخر .

خمدت نشوة الأيام الأولى وحلّت مكانها خيبة كبرى كما هي الحال في مثل ذلك تاريخياً .

منين دفتري، حفيد مصدق، الذي يتزعم الجبهة الوطنية، كان من المنادين بالامتناع عن التصويت وبمقاطعة الاستفتاء . وصرّح بلسان اليساريين، غير الشيوعيين، بأنه كان يؤثر ان يجري اقتراع اول يقول فيه الشعب اذا كان راغباً في التخلص من النظام الملكي : «لقد ناضلنا طوال ربع قرن للتخلص من النظام الملكي، لقد كافحنا في ايران وخارجها، واليوم لا احد يطلب رأينا . اننا اولاً ديمقراطيون، ونرفض ان يفرض علينا مستقبلنا فرضاً» . مجاهدو الشعب من

ناحيتهم طلبوا فهم ما يعني تعبير «جمهورية اسلامية» وأعلنوا بشيء من التحذير المبطن ان ايران بحاجة الى ثورة اخرى اذا لم يتغير الوضع الراهن.

الأقليات، وفي طليعتها الأذربيجانية والكردية، وقفت فوراً الى جانب الذين يقاطعون الجمهورية الاسلامية، وبسرعة، بدأت حركة التمرد وأخذت معارضة الاستفتاء حجماً واسعاً حدا بالخميني على دعوة الجميع الى التصويت، معلناً ان الاقتراع واجب قومي وديني. اما كلمة «ديني» في هذا الاطار فتعني ان اي دعاية ضد الاستفتاء او الى الامتناع عن التصويت تعتبر جريمة وتستوجب العقاب. وطرح الموضوع بشكل يجعل الدعاة الى المعارضة أو المقاطعة في وضع حرج. وطرحت صيغة الاستفتاء على الشكل التالي: «هل تريد او لا استبدال النظام الملكي بجمهورية اسلامية؟» اما الذين سيرفضون فيعتبرون من انصار العهد البائد.

لا شك ان طغيان الخميني كشف عن صورته الحقيقية بعد ان بهر الكثيرين. ونلاحظ هنا ان الذين امتنعوا عن التصويت كانوا ٢,٥٠٪ . بينما لم يقف الى جانب الخميني ـ باستثناء حراس الثورة ـ سوى حزب واحد، وهو حزب توده. فهذا الحزب كان قد تحالف مع الخميني منذ زمن طويل، ومن خلاله كانت موسكو تلعب ورقة آية الله والثورة الاسلامية ضد الشاه.

ويا له من امر مدهش: لأن ثورة اسلامية حقيقية تشكل مبدئياً اكبر عقبة في طريق الشيوعية الدولية اي الثورة المادية. أوليس الاسلام توكلاً على الله؟

والكرملين من جهته يعرف ان الثورة الايرانية ليست سوى اتجاه بين الاتجاهات الأشد تبايناً مع الاشتراكية الماركسية. لأن قيام جمهوريات اسلامية غير متأثرة بالاشتراكية الحقيقية يشكل بالنسبة الى موسكو نوعاً من اللعب بالنار. ولكن السوفياتيين يعرفون ركوب المخاطر حتى وان منيوا في النهاية بفشل ذريع كما حصل في مصر.

اما بالنسبة الى الخميني، فقد قلّل السوفياتيون من أهمية المخاطر المحتملة ـ

وهي واقعة دونما شك ـ اذ هم معتادون على قمع الانتفاضات وخنقها في الأرحام. اما الفوائد على المدين القصير والمتوسط فبالغة الأهمية. فقد غزوا ايران. وهذا الغزو لما حصل لو كان الشاه ما يزال على رأس الجيش الايراني. كما لاحظوا التدهور الاقتصادي الذي يوفر افضل مناخ لنمو الاضطرابات الاجتماعية كالفقر والجوع الى جانب التراجع المستمر الذي يشهده الغرب في كل مكان. وجميعها تصب في طاحونتهم.

وهكذا، بدت الأوضاع وكأنها تنقلب رأساً على عقب. فبينما كان الروس يبدون بمظهر الخاسر الأكبر من جراء التطور الذي بدأ في الشرق منذ سنة **١٩٧٤** اذ استعاد الاميركيون ـ مع نيكسون وكسينجر ـ المكان الذي لم يكونوا يحلمون به، نرى الآن ان وزن الاميركيين قد تراجع كثيراً في المنطقة، ولاسيما بعد مبادرتهم الفاشلة في لبنان سنة **١٩٨٢**. بينما سجل السوفياتيون انتصارات عديدة واصبحوا حتى في دول الخليج المحادثين الذين لا بد من السماع اليهم، ما دام الجميع يخشى المد الديني الأصولي المتطرف.

اما حسابات السوفيات فقد ارتكزت على انهيار الخميني المرتقب بفعل الفوضى الاقتصادية التي ستسود ايران في ظل حكمه، بينما ستؤدي عمليات التطهير والتصفية الى تنظيم المقاومة التي يأمل حزب توده ان يجد داخلها مركزاً مرموقاً نظراً لاحترافه في هذا المجال. حسابات موسكو كانت معقولة لأن الحكم المستبد الذي لا يحمل سوى البؤس والفقر مقبل على الفشل والادانة وقيام وضع ثوري يقطف الشيوعيون ثماره. ووجود الجيش الأحمر على طول الحدود الافغانية سيجد ذريعة مقبولة من اجل التحرير الماركسي اللينيني لشعب ايران. لكن السوفياتيين لم يتوقعوا ان تشهد حركة الخميني شعبية كبرى في بعض الدول العربية وأن تندلع الحرب بين العراق وايران. لأن هذه الحرب هي التي انقذت آية الله وجمهوريته الاسلامية القائمة على خليط فريد وسوريالي.

لولا الحرب، لما كان نظام الخميني ـ الذي نقلت الينا الوكالات اخبار فظائعه ـ قدر الاستمرار وتعزيز وجوده. فالذي حدث في ايران يذكر بما حدث

ابان الثورة الفرنسية منذ قرنين. لأن الرعب كامن في منطق الأمور ولكنه لا يبرز الا في جو حرب شاملة. فالحرب وجدليتها تبرران كل شيء. وهنا يمكن الحديث عن تقلّب الاتجاهات. فالضباط المعتقلون يخرجون من السجن والمعارضون يصبحون مثال الوطنية. حراس الثورة يتآخون مع قادة الجيش الشاهاني البائد وتحل طبقة جديدة من الضباط، طبقة «مفوضين سياسيين» محل السافاك فتدعي لنفسها امتيازات حقيقية سياسية وعسكرية. الآن، تستخدم الحرب عذراً لتبرير الرعب. وفي هذا الصدد لا بد من ذكر ما نشرته جريدة «لوموند» الفرنسية التي لا يمكن بأي حال وصفها بمحاباة الشاه وممالأة نظامه الامبراطوري:

«حصيلة الاعدامات يومي الجمعة والسبت كانت مرتفعة بحيث ادركت ١٢٨ شخصاً معظمهم من مجاهدي الشعب. وقد اعدموا بصورة جماعية، ودون محاكمة، في باحة قصر ايفين، وفي غيرها من مراكز الاعتقال المنتشرة في انحاء البلاد كافة. بين الذين اعدموا ٨١ شاباً احدهم تهمته انه اعطى المعارضين الأكراد ادوية وبينهم رجل دين متهم بالتعاطف مع مجاهدي خلق. المحاكم الثورية لم تتوانَ عن تطبيق التدابير الصادرة عن مدعي عام الثورة حجة الاسلام تبريزي الذي طالب بمحاكمات سريعة للذين يشاركون في تظاهرات معادية للسلطة. وقد دعا الى اعدام المتظاهرين فور اعتقالهم كما دعا الى القضاء على الجرحى».

الى هذا المقال المنشور في ٢٢ من ايلول ١٩٨١ لا بد ايضاً من اضافة مقال آخر في ٢٠ من شباط ١٩٨٢. لأن الحرب تضاعف ارهاب الدولة وجدليته بدلاً من وضع حد له. قالت «لوموند»:

«اللجان، الباسداران (حراس الثورة)، الجمعيات الاسلامية، الهيئات الايديولوجية، لجان المساجد... هذه هي الشبكة التي تشكل القوة الضاربة لدى النظام الايراني. يُجنّد عناصر هذه الهيئات في اوساط الطبقات المعدمة فتقدم لهم المساكن والأجور والغذاء، ثم تستخدم لاحلال مناخ من الرعب. فقد تم تجاوز كل درجات الهمجية: اعدام النساء الحوامل والأولاد دون الخامسة عشرة

والمسنين الذين جاوزوا الخامسة والستين. تعذيب فظيع للسجناء، اغتصاب الفتيات... فالنظام يبتكر اشكالاً من الفظاعة خليقة بمعارض الرعب. وتظهر على جثث الضحايا علامات التعذيب والتشنيع من اقتلاع العيون الى قطع الآذان، الى كسر الأرجل والأيدي، الى الحرق بالحديد المحمّى. الخطف يتكاثر بدليل اعلانات «البحث عن مفقودين» التي تعمّ صحف طهران. السجون مكتظة بشكل غير طبيعي. في ايفين مثلاً سجن معد لاستيعاب ١٢٠٠ سجيناً وأصبح الآن يضم اكثر من عشرة آلاف».

وهكذا، فبدلاً من ان يسقط الخميني تحت ضربات الثورة، وفقاً للمبدأ القائل بأن الثورة تأكل ابناءها، فانه يزيد النار وقوداً. وهنا يبدو حساب موسكو الخاطىء لأن الحرب خلقت جواً من الهيجان كان الخميني وجماعته بأشد الحاجة اليه لترسيخ سلطتهم. وهكذا فقد اصبحت نتيجة الحرب، وليست الحواجز المعنوية والخلقية هي التي تقرر مدى نجاح الخميني. واذا اسقط نظام بغداد وأطيح بالرئيس صدام حسين فستذهب الثورة الاسلامية الى مد تشعباتها في ارجاء العالمين العربي والاسلامي، ولاسيما في افريقيا الشمالية نظراً لأهمية الطوائف الاسلامية في اوروبا، لأن الثورة لن تتوقف لدى شاطىء المتوسط الجنوبي. وهنا نفهم نوعاً ما لماذا لم تدخر موسكو جهداً في سبيل دعم بغداد وتزويد العراق بما يحتاج اليه من اسلحة كيلا يخسر الحرب. وإلا فسترى موسكو يوماً الثورة العالمية وقد افلتت من يدها في الجزء الأكبر من افريقيا، وربما في مختلف انحاء العالم.

هل هي ثورة فريدة ام نوبة حمّى كغيرها من النوبات؟

هنا لا بد في سبيل الاختصار من المقارنة بقدر الامكان بين الناصرية والبعث والخمينية. فالخمينية من حيث جوهرها تختلف جذرياً عن الناصرية التي هيمنت على المسرح العربي من ١٩٥٢ الى ١٩٧٠. فالناصرية القائمة على اسس الاشتراكية والعلمانية ولطالما حثت على الكفاح ضد الاستعمار هي قبل كل شيء حركة تحرير عربية تبقى وفية لفكرة الاستقلال التي رفع تيتو رايتها. الى هذه الاشتراكية القومية، ينتمي نظام عبد الناصر والطريق الذي خطّه.

القذافي، مع انزلاقه الواضح نحو التبعية الشيوعية يعتبر منافساً لكاسترو اكثر منه منافساً لعبد الناصر. اما ايديولوجية الحكم في سوريا والعراق فمستوحاة من اسس البعث الذي سنتطرق لاحقاً الى افكار مؤسسه ميشال عفلق، وهو مفكر علماني. فالبعث حزب قومي يسعى الى انشاء أُطر وارساء بُنى تتيح للعرب وعي هويتهم ومُثلهم. انه يناضل ضد الصهيونية والاستعمار ويتوق الى تحقيق الوحدة العربية. هو الحزب الأكثر صلابة ومصداقية في طريق النهضة العربية وهو الأكثر معارضة للخميني، وللأفكار التي ترقى الى القرون الوسطى. وليس من قبيل الصدف ان يخوض البعث حرباً لا هوادة فيها ضد الخميني. هذا من حيث النظر اما من حيث السلوك والعمل فشيء آخر تماماً.

صوت المغرب

إذا لجأنا الى التعابير والكليشيهات المألوفة سلّمنا بأن الثورة الاسلامية تطرح اسئلة عديدة. لعلّ اهمها هو:

ماذا سيبقى من الخمينية بعد الخميني؟

ففي وجه الانحرافات المشؤومة تبقى في العالم العربي وجهة نظر صائبة، هي الوضوح. لا شك ان رؤية الأمور السياسية تصعب ساعة تكون مصدر ازعاج. وبالرغم من ذلك فقد سعى ملك المغرب الحسن الثاني الى التصدي لهذه الأمور. ومبادرته السياسية وخطاه الدبلوماسية تستوجب بعضاً من اسهاب.

***

الملك الحسن الثاني، سليل الأسرة العلوية العريقة، يعرف خيراً من سواه العناء الطويل الذي ادّى الى انشاء دولة المغرب. وهو يعرف مدى العناد والاصرار والعزم التي بذلها اجداده، ووالده خاصة، للقضاء على نير الاستعمار حتى تحقق له ما شاء في العام ١٩٥٦. انه يذكر ايضاً - بذاكرته الملكية - كيف منحَ المغرب الفرنسيين والبريطانيين والاسبان منذ العام ١٨٨٠ وبموجب اتفاق مدريد امتيازات الدول الأكثر قرابة ورعاية. لكن هذا الامتياز انتُزع من المغرب انتزاعاً كما انتزع الفرنسيون والاسبان منه سنة ١٩٠٤ الحق لمواطنيهم بالاقامة في

الأراضي المغربية. عندئذ، لجأ العاهل المغربي الى المناورة نظراً لاستحالة التغلب على خصومه الأقوياء بالوسائل العسكرية التقليدية. وحاول صدّ خصومه باجراء اتصالات مع المانيا التي كانت قد أُبعدت عن الاتفاقات الفرنسية البريطانية وتركت بمنأى عنها، فنظم زيارة القيصر غليوم الى طنجة في العام ١٩٠٥ بينما كانت الضغوط الفرنسية والبريطانية تتراخى أو تشتد طبقاً للتطورات.

في العام ١٩٠٦ انعقد مؤتمر «الجزيرة» وقد تم بموجبه تدويل الاقتصاد المغربي فأصبح امن المرافىء المغربية بأيدي الفرنسيين والاسبان. وبسطت اوروبا هيمنتها لكن المغرب ظل يكافح ولم يستسلم. فالمانيا بالمرصاد وتحمل معها بذور النزاعات المقبلة. وقد حصل سلطان المغرب على تنازلات. فالشائعات في شأن الحرب حملت باريس على التريث. ولاسيما انه في العام ١٩١١ كان الطراد «بانزير» يرابط في عرض شاطىء اغادير. ففي السنة عينها تمكن سلطان المغرب من اكراه السلطة المحتلة على الاعتراف ببقاء البلاد مملكة متعلقة بفرنسا دون ان تكون مستعمرة لها. وبدأت مرحلة الانتظار ثم جاءت الحرب حاملة معها الآمال بالاستقلال إلّا ان هذه الآمال لم تتحقق.

استسلم آخر المتمردين سنة ١٩٣٤ وعُزل محمد الخامس بعد ان جرّد من كل سلطة فعلية. لكنه لم يفقد الأمل بحدوث اضطرابات غير متوقعة. ألم يعد فرنكو في العام ١٩٣٧ بمنح الحكم الذاتي للمغرب الاسباني؟

ثم اندلعت الحرب العالمية الثانية، وخلالها جرت محادثات مثمرة مع روزفلت الذي قرر دعم العاهل المغربي. ولكن المنية وافت الرئيس الاميركي قبل ان يتسنى له البر بوعده وجاءت الحرب الباردة لتنزل موضوع انهاء الاستعمار الى المرتبة الثانية في سلم الأولويات.

اما باريس التي شعرت بأن رياح التحرر بدأت تهب على مستعمراتها القديمة فشددت لهجتها.

في العام ١٩٥٠، رفض محمد الخامس التخلي عن المطالبة بالاستقلال.

وبما أنّ امر ارجائه اصبح وارداً، كتب الى الرئيس الفرنسي فنسان اوريول وطلب اليه ان يعاد النظر في الحماية الفرنسية للمغرب. الاميركيون وافقوا على الطلب وصوّتوا الى جانب المغرب في الأمم المتحدة. لكن فرنسا لم توافق معتبرة ان موافقتها على استقلال المغرب ستؤدي الى بداية انهيار استعمارها في كل مكان. اما رئيس الوزراء الفرنسي جورج بومبيدو فقد طلب من محمد الخامس التنازل عن العرش فرفض. عندئذ نفي الى كورسيكا ومنها الى مدغشقر، لكنه لم يتراجع عن موقفه الرافض لأي تنازلات. وقد جاءت اتفاقات «لا سيل سان كلو» تؤكد هذا الاصرار. وفي العام ١٩٥٥ كانت قضية الاستقلال التام قد اصبحت بحكم المنتهية، ولم يبقَ هناك سوى بعض الخطوات الشكلية.

هذه المسيرة التاريخية تفسر صحة الخط الذي اتبعه الحسن الثاني اذ لا بد للمرء من التمسك بمواقفه، خصوصاً عندما تبدو الظروف غير مؤاتية. كما لا بد ايضاً من طرح المسائل الحقيقية والابتعاد عن كل ما يعيق مسيرة العالم العربي. يجب عدم الخوف من اختبار العدو حتى ولو كانت المجابهة، في البداية، غير مجدية. ومع الحسن الثاني يختلف الأمر عمّا هو عليه هذيان الخميني. فالعاهل المغربي بتفكير صائب ومنطقي وبقوة بصيرة. انه من مدرسة «مترنيخ» التي يتميز تلامذتها بالوعي الرصين والثابت.

في المؤتمر الصحافي الذي عقده في صيف ١٩٨٦، رسم الحسن الثاني ستراتيجية جديدة للعالم العربي. وهي ستراتيجية الفعالية. فقد جاء كلام العاهل المغربي ليشكل اول ملامسة موضوعية للوضع العربي منذ الخطاب الذي القاه عبد الرحمن عزام باشا اول امين عام للجامعة العربية لدى تأسيس الجامعة في العام ١٩٤٤. عزام باشا دعا الى المثابرة. اما ملك المغرب فقد اضاف الى المثابرة الحسابات الدقيقة والمهارة.

في القسم الأول من مؤتمره الصحافي تطرق الحسن الثاني الى اهمية جمال عبد الناصر التاريخية. لكنه اوضح حدود عمل عبد الناصر وبيّن تناقضاته وأخطاءه مع الجرأة على القول بصوت عالٍ ما يُردِّد همساً في الأوساط الدبلوماسية العربية.

«حدثان هامان أثّرا في حياة العالم العربي، احدهما في المشرق والآخر في المغرب». في المشرق كانت الثورة المصرية عام ١٩٥٢ وفي المغرب كان نفي محمد الخامس وإبعاده عن عرشه سنة ١٩٥٣ . هذان الحدثان تركا انعكاسات شعرنا ببعضها على الفور وظل بعضها الآخر غير ملموس سوى لدى الذين كانت لهم الجرأة على الكفاح وعلى بذل الجهد الضروري والصادق من اجل التوجه الى الرأي العام وكشف هذه الانعكاسات على افضل وجه».

«اني لا اجهل كما لا يجهل احد ان جمال عبد الناصر ـ رحمة الله ـ أعطى المواطنين العرب اهمية كان الآخرون ينسونها أو يتجاهلونها. هذه الأهمية اعطاها اولاً لمصر وثانياً للعرب عندما قرر مع المأسوف عليهم نهرو وتيتو وسوكارنو عقد لقاء باندونغ. وهو اللقاء الذي ادى الى ولادة افكار جديدة، بينما فكرة عدم الانحياز التي اعتبرها البعض امراً صالحاً بينما اعتبرها الآخرون نوعاً من قناع. المهم انهم كانوا روّاد فلسفة جديدة للعالم العربي وللعالم الثالث. ولكن، ويا للأسف، وأقولها بصراحة المؤرخ وبموضوعيته، هنا ينتهي ما اعطاه عبد الناصر من انجاز ايجابي. هذا في المشرق. اما في المغرب العربي، فاني اقول بكل فخر واعتزاز وتواضع ـ لأنه اذا قلنا ان السيف أمضى من العصا فلا نكون قد وفينا السيف حقه. إن نفي محمد الخامس زعزع اركان الاستعمار في افريقيا، سواء أكان هذا الاستعمار فرنسياً أو بريطانياً ام اسلامياً أو غير ذلك. سواء أكان استعماراً شرقياً ام استعماراً غربياً. أقول هذا الكلام لا من اجل التدخل في شؤون الغرب، انما لتحليل الوضع في المشرق بعد عبد الناصر، وفي المغرب بعد لقاء إفران».

«في الواقع، إن ما حدث في مصر ثم في المشرق العربي عامة لشبيه بالاجهاض. لقد انتهكت الحريات وأصبح نظام الحزب الواحد قاعدة وكذلك التجمعات العمالية الوحيدة. ولا اقول النقابات لأن ما هو وحيد لا يمكن ان نطلق عليه اسم نقابة. لقد انتهكت الحريات، وخنقت مَلَكة التعبير وأصبح احمد سعيد على موجات صوت العرب في القاهرة الشخص الذي يقرر على هواه وكيفما اتفق مصير الناس. وذلك على شاكلة ما حدث في ايران عندما تحرك الجيش

الايراني ليغزو العراق. والأسوأ من ذلك هو التدخل السافر في شؤون الدول العربية الأخرى دون احترام تقاليدها ودساتيرها ورغباتها وأمانيها. متذرعاً بأنه صوت الشعب وليس صوت الحكام فارضاً بذلك على الأسرة العربية هيمنة طاغية. وعبر الذين يدّعون انهم منظّرون كادت هذه الدعاية تطال المغرب نفسه».

ـ لا بد دونما شك من شجاعة خارقة للتعرض الى مثل هذه الاسطورة! لكن خطوة الحسن الثاني تتمثل باقتراحها على الارادة العربية اتجاهاً آخر، غير الخطابات الساحرة المثيرة للحماسة، ولاسيما عندما يتطرق لمشكلة جوهرية كتلك التي يطرحها الكلام عن اسرائيل.

يقول ملك المغرب في حديثه عن لقاء إفران:
«إن ما يستوقفني قبل كل شيء هو هذه الحقيقة المرة: نحن لا نقاتل اشباحاً انما نحارب شعباً وحكومة ونظاماً. وإن في اذهاننا لبساً بين الاعتراف والمحادثات، كما نخلط بين لقاء استطلاعي ومفاوضات. لنتذكرنّ حياة الرسول ﷺ: لقد كان موجوداً شخصياً في الحديبية. كان يشير بنفسه الى النقاط الواجب اضافتها أو حذفها في معاهدة السلام. هذا النبي الخالد علّمنا يومها سياسة الواقع والواقعية، وهي السياسة المبنية على الحقيقة، والتي تستبعد الفرار باتجاه الخيال والوهم ساعة يجب عمل فعّال».

«انني وضعت نصب عينيّ باديء ذي بدء ان العدو ليس شبحاً، وهذا امر جوهري. ثم وضعت امامي ان العرب بعد سنوات طويلة من الجهود المتواصلة توصلوا بالاجماع الى نتيجة مرموقة وهي مشروع فاس. والأجمل من ذلك ان هذا المشروع حظي بموافقة العديد من الدول في مختلف الجهات والقارات».

«قلت في نفسي «مستنداً الى هذه المسلّمة المبنية على الشرعية، والتي تحظى بموافقة شبه اجماعية: من المستحب ان اجري شخصيا وبصورة علنية محادثات مع المسؤولين عن النكبة التي تحل بالمشرق العربي لأعرف موقفهم من مشروع فاس. انكم تتصورون، كما اظن، انني لم أقم بهذه المبادرة دون تفكير وتروّ، ولاسيما انني

اعلنت رغبتي في الأمر اكثر من مرة، مع ان هذا الاعلان لم يكن بشكل واضح صـريح ولكن اوليس «اللبيب من الاشـارة يفهم»؟ اعلنت إذاً مـوقفي «بالاشارات». وآخر اشارة كانت عندما اعلنت: اذا اجتمع الزعماء العرب في قمة، سأقترح عليهم تفويض احدهم بين الذين يتحلون بالصدق والذكاء والحنكة السياسية، بمقابلة العدو مباشرة ليطلب منه تحديد ما يناسبه وما لا يناسبه في مقررات قمة فاس».

نلحظ هنا ان خطوة ملك المغرب تندرج في سياق اطار مزدوج: اولاً، لا يمكن القيام بأي عمل دون منهج، ومشروع فاس يدخل في اطار هذا المنهج. ثانياً، ان قوة اسرائيل تزداد اكثر فأكثر بفعل انقسام العرب، هذا الانقسام الذي زادت الخمينية من حدّته. بل انه تكرار للخطأ الناصري مع الضمانات الجديدة التي اصبحت الآن في حوزة اسرائيل. ولكن، لنستمع الى حديث الحسن الثاني:

«... وهكذا اذاً، كما قرأتم في الرسالة التي وجهتها الى اخواني الملوك والرؤساء العرب، فان العرب لم يبدوا منقسمين ومتباعدين اكثر مما هم عليه الآن. ثم ان مشروع فاس يشكل عنصراً ايجابياً وخلاقاً لا يضاهى، بل انه يجسّد اتفاقاً عربياً بعد سنوات من الانشقاقات. ولكن يخشى ان يصبح مشروع فاس المنكود الحظ قطعة بالية توضع في متحف أو وثيقة تحفظ في احدى اضبارات المكتبات العامة».

«من ناحية اخرى، لاحظنا ان هناك خلافاً عربياً وهمياً. عودوا الى ذكريات الطفولة تجدوا اني على حق:

«الدروس الدينية التي كنا نتلقاها في المدرسة الابتدائية كانت تتضمن معلومات عن الشيعة والخوارج. لكن ذلك لم يتجاوز الدرسين او الثلاثة كحد اقصى».

«اليوم خرج المارد الأحمر وناره الحمراء من القمقم ونفخوا في نار الخلافات العربية. ان السكوت يعني الاذعان والرضا. لم تمضِ سنة أو سنتين في دراسة الشيعية الجعفرية أو سواها من المذاهب. فقد حدّثونا عنها بعض الشيء ثم توقف

الأمر عند هذا الحد. وبعد ذلك فان العرب والمسلمين الذين كانوا يعيشون في اطمئنان، تعرضوا لفتك المارد الأحمر الذي خرج من القمقم والذي لا يعلم الا الله متى سيعود اليه».

«قال النبي (صلعم) عندما ينكسر باب الفتنة، من المستحيل اغلاقه. - لقد انكسر باب الفتنة ووقعنا اذاً في الفخ ونزلنا الى الدرك الأسفل لأننا ننهش بعضنا بعضاً. فنحن العرب لا نحارب اذ قد نسينا قضيتنا الأولى. ونتظاهر بالمحبة والتآخي. هذا ما كنا نخشاه يوم كنا على مقاعد الدراسة الابتدائية أو التكميلية. لقد قلت في نفسي: لِمَ لا اسلّط الأضواء على القضية العربية؟ عندئذ يمكن العرب ان يعوا وعياً كاملاً وصحيحاً مشاكلهم فيصبح بامكانهم ان يحلّوا قضيتهم بشكل جدي».

«تعرفون ولا شك هذا المثل الذي يضرب في علم القانون: إن المفتقر الى شيء لا يستطيع اعطاءه! وعندما اقترحت ان يعين الزعماء العرب بأنفسهم مندوباً رصيناً كنت اعتقد ان هذا المفوّض أو المنتدَب ليس معنياً مباشرة بمشكلة ارض أو شعب يعيش في المنطقة، بل انه سيوقع صفحة أو عشر صفحات مع الاسرائيليين لن تكون بأي شكل ملزمة لطرف عربي آخر».

ويبرهن الملك الحسن الثاني ان السير في هذا الطريق الوعر قد يؤدي الى بعض النتائج. وإن الطريق الدبلوماسي هو جبهة كما جبهات الحرب. قال:

«تعرضت للانتقاد من كل جهة وصوب بعد لقائي بشيمون بيريز. فكيف يمكنني ان اشجع غيري من المسؤولين العرب على سلوك الطريق عينه؟ المهم ان تتأملوا ملياً بهذا الأمر: هل يمكن ان نسمع يوماً اسحق شامير يقول: انني مستعد لتحمل مسؤولية الخطر الناجم عن انشاء دولة فلسطينية على حدود اسرائيل أياً كان الخطر الذي يمثله قيام هذه الدولة على اسرائيل»؟

«متى يعود السادة العرب الى رشدهم؟ هلاّ نزال نعيش في عهد الناصرية! لنتحلّ اذاً ببعض الواقعية. متى كانت كلمات فلسطين، والشعب الفلسطيني، والحكم الذاتي، والهوية الفلسطينية تتردد بهذا المقدار قبل الأيام الأخيرة؟ قبل لقاء افران!».

وذكّر الحسن الثاني بأن المغرب قوة عسكرية وبأنه متضامن مع العرب في حال نشوب حرب جديدة. وقال إن الحديث مع العدو ما هو سوى حرب اخرى وبوسائل اخرى».

«اذا نشبت الحرب لسبب او لآخر بين العرب واسرائيل فان المغرب سيكون في طليعة المقاتلين. اننا نحترم تعهداتنا. قلت ذلك وكررته في غير مناسبة. ولكن ذلك لا يعني اننا نغلق الباب بوجه كل حوار وعلى الوسائل السلمية. ليكن هذا مفهوماً من الجميع. فالمؤمن ملتزم بكلامه.

«لنعد الى المسألة الأولى. فلا بد من الاعتراف بأن كلام بيريز كان مليئاً بالأفخاخ. فكلما حدثته عن الانسحاب من الأراضي العربية كان يجيب: ان اسرائيل لا تنوي الاحتفاظ بالسيادة على قطاع غزة والضفة الغربية، ولكن لا بد من شروط وضمانات. اجبته: ما لك ولهذا الكلام فهذه الأمور لا تتعلق بي، وانما تتعلق بمن يتوجب عليهم ان يستعيدوا الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة. كان يسعى باستمرار الى جرّي لساحة المفاوضات. وأنا غير مخوّل، وغير مكلّف بالتفاوض، وليست لي اي صفة شرعية في هذا الشأن».

عندما كنت اطرح عليه موضوع منظمة التحرير الفلسطينية كان يجيب:
«بالطبع انا افهم. ولكن، نظراً لوضع المنظمة بسبب انشقاقاتها العديدة، وبسبب عدم معرفة مقر اقامتها المحدد، فهل هو في دمشق أو في عمان؟ وهل تقبل المبادرة المشتركة مع الأردن؟ هل هي موجودة في تونس؟ هل قيادتها نافذة ومعترف بها؟... اوقفته مرة اخرى عن الكلام لأقول له: من غير المناسب الدخول في هذه التفاصيل وان اتبعك في هذا الطريق الذي يبعدنا عن الهدف. اني اكلمك عن الأراضي العربية، اما الحديث عن فك الارتباط وعن نقاط الحدود فقضية تخصّك انت ولا تعنيني ابداً. اما في ما يتعلق بمعرفة هل منظمة التحرير صالحة ام لا فاني اقول ببساطة انني اعتبرها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني. لندع اذاً هذه التفاصيل لأنني لست مفاوضاً ولا مكلفاً بالتفاوض. ولو كنت مكلفاً بذلك لطلبت من الملوك والرؤساء العرب ان يحدّدوا لي كتابة الأسئلة التي يجب ان اطرحها عليك».

«وبما انني لم اكن مفوضاً من الدول العربية، وأتصرف بصفتي الشخصية، طرحت عليه سؤالين، الأول في شأن الأراضي العربية المحتلة، والآخر عن منظمة التحرير الفلسطينية. لكني لاحظت انه يتهرب في اجوبته ويحاول ان يجرني الى ساحته، كأنّي املك صلاحية تقديم التنازلات أو البت في اي شيء. فقلت له ان طريقينا متباينان مختلفان».

«مما يعني بالنسبة الى بيريز ان ليس لديه ما يقوله لي. ولكن ذلك لا يعني ان اولئك الذين لديهم ما يقايضون به، لن يجدوا ارضية نقاش. وأنا، كنت في وضع ذاك الذي يستطيع ان يحقق ربحاً دون ان يقدم اي تنازلات».

ـ وهكذا فان الطريق المرسوم بسيط، غير انه شائك: يجب استخدام كل الوسائل التي لدى العالم العربي في سبيل تحرير الشعب الفلسطيني. ولكن يجب ايضاً رفض كل سراب ووهم والابقاء على تفكير منطقي. فالملك الحسن اكد قائلاً:

«المهم هو طرح الموضوع وعدم التوقف عند هذا الحد. فالمثل الشائع يقول بعدم التخلي عن الجزء اذا استحال نيل الكل. ولاسيما اذا تطلعنا الى التباينات العربية. اما الفلسطينيون فسيضيعون وقتهم وقضيتهم ان هم واصلوا الاتكال على الدول العربية لتقدم لهم الاستقلال على طبق من فضة. فالاستقلال الفلسطيني لا يتحقق الا على ايدي الفلسطينيين انفسهم وبمساعدة الدول العربية. لا العكس. اي ان الدول العربية لن تستطيع اعطاء الفلسطينيين حقوقهم بمساعدتهم ومساهمتهم، بل هم يستطيعون الانتصار وربح قضيتهم بمساعدة العرب الآخرين. هذه هي المعادلة الحقيقية. وليس هناك من معادلة صحيحة اخرى».

هذا كل شيء. ولكن هذا ضخم ولا يستهان به. اذ هناك في الأفق مسيرة حقيقية، مبادرة بكل مميزاتها لا بد من التسليم بأنها بدأت. وأسسها كامنة في خطة فاس، كما قاله العاهل المغربي:

«الشرعية الأولى هي في رأيي مشروع فاس، دون سواه. فلو جاءني

شيمون بيريز حاملاً معه مثلاً مشروع ريغان لرفضت البحث معه. اني لا اعرف ولا اعترف بسوى المقترحات المتخذة في فاس، وسأستمر في المناداة بها. انها الأصل والقاعدة والهدف. هذا بالنسبة الى شرعية الموضوع. اما في ما يتعلق باللقاء فاني اقول: لا شيء في مقررات فاس ولا في مقررات القمم السابقة يحول دون التلاقي مع رئيس الحكومة الاسرائيلي أو يحظّر ذلك. الممنوع كان وما يزال اجراء مفاوضات جانبية ومنفصلة، وصلح منفرد. اما في ما يتعلق بي شخصياً فلا شيء لدي افاوض في شأنه. الذين يستطيعون التفاوض هم الأطراف الذين يفصل بينهم نزاع».

اجوبة ملك المغرب عن اسئلة الصحافيين بيّنت اذاً ان مشروع فاس متناسق، ويحظى بتأييد الرأي العام العالمي. بل انه يشكل بالنسبة الى اسرائيل فخاً حقيقياً. لهذا، فان نتيجة لقاء إفران تعتبر ايجابية:

«المسألة اذاً ليست في قبول اسرائيل بالقرارين ٢٤٢ و٣٣٨، او في ان تحظى بضمانات امنية لتنسحب من الأراضي المحتلة وتعطي الفلسطينيين حقوقهم. كلا. اننا امام التعنّت الاسرائيلي المستمر في عدم تقديم اي تنازل. فعلى هذا الموقف بالذات يجب ان يصبّ الاستنكار العام. ضروري ان تلتئم قمة عربية في اقرب وقت في سبيل التأكيد على التمسك بمشروع فاس. وليكن هذا التمسك حقيقياً ورسمياً وصريحاً، لا ان تذهب بعض الدول العربية الى الطعن بمشروع فاس من وراء الدول العربية الأخرى. يجب ان تشكل القمة لجنة سباعية جديدة. وأن يعيّن رئيس جديد لها. يكلف بالانطلاق في ضوء لقاء افران. هذا اللقاء السلبي من الجانب الاسرائيلي والايجابي من جانب المغرب الذي فضح الاسرائيليين وبيّن للملأ وجههم الحقيقي، فمنذ الآن سيصعب على «اللوبي» الصهيوني ايجاد الوقود الضروري لاضرام نار دعايته. اللهم الاّ في الحملات التي نشنها نحن العرب على بعضنا بعضاً. فهذه الخلافات هي التي تذكي النار وتشكل قوة اسرائيل الحقيقية.

الحرب العراقية - الايرانية

لهذه الحرب مبررات عديدة. فالرئيس صدام حسين ومعه حزب البعث وجميع المسؤولين العراقيين بصورة عامة لم يكونوا قابلين بالضغوط التي مارسها الشاه على بغداد وهي التي ادت الى توقيع معاهدة الجزائر.

من ناحية اخرى فان العراق - السني كما الشيعي - كان ينظر بعين القلق الى اتساع بؤرة التطرف الديني على حدوده المباشرة. وهذا القلق لم يقتصر على بغداد، فدول الخليج جميعاً كانت حذرة ازاء نوايا آية الله الخميني.

بوجه الشاه، أو بالأحرى بوجه جيش الشاه، كان لصدام حسين جيش معبأ خير تعبئة، ومجهز تجهيزاً تقليدياً بالمدرعات الثقيلة والمدفعية خاصة. كما كان الطيران العراقي من افضل ومن خيرة اسلحة الجو في المنطقة. انما كان ينقص العراق بعض الخبرة التكنولوجية التي يقدمها المستشارون العسكريون الاميركيون، اي خبرة الاستعلام والاتصال بواسطة الأقمار الصناعية وسواها من الوسائل الحربية الحديثة.

صدام حسين الذي كان يتابع بتيقظ تام الأحداث التي تحصل في ايران بدأ يشعر بأن الفرصة قد حانت، ولاسيما منذ ان بدأت الولايات المتحدة تتراجع دونما

انتظام من اهم نقاط تمركزها في الامبراطورية الفارسية. وأكثر من ذلك، فان القادة الذين كانوا قد اعدوا خطة احتياطية للحرب ضد العراق، هربوا الى الخارج (كالجنرال عويسي الذي اغتيل منذ سنوات قليلة في باريس). اما سلاح الجو فلم يعد يملك الطيارين الضروريين لقيادة طائرات الفانتوم بعد ان فرّ معظم الطيارين الى اوروبا والولايات المتحدة. فاذا كان لا بد لصدام حسين من محاربة ايران فالفرصة عندئذ قد حانت اذ ايران ضعيفة وتعاني من تغييرات وتبدلات تشلّها.

كل البنى العليا في الدولة الايرانية هاجرت بدورها ومن تبقى لم يلبث ان هاجر بدوره فرافق الرئيس بني صدر الى منفاه. اما مالية البلاد ـ المزدهرة قبل سنوات ـ فقد ضعفت من جراء النزف الذي لم يكن انخفاض سعر البترول سوى احد اسبابه. العراق من ناحيته في وضع سليم، وهذا يشكل عاملاً هاماً عشية اندلاع الحرب. فالوضع العام ملائم لبغداد فاعتبر الرئيس صدام حسين ان فرصة الانتصار لن تتاح مرة اخرى.

هنا لا بد من قول كلمة في شخصية صدام حسين الذي يتحلى بكل صفات القائد. انه مثال المناضل القوي الذي يعتمد على حزبه، البعث، وقد جعل من هذا الحزب آلة ممتازة، ايديولوجياً وتنظيمياً، حازت على ثقة البلاد. صدام حسين رجل ساحات القتال اذ انه الرئيس المحاط بأفراد قيادته، وهو الى ذلك رجل التفكير الرصين الهادىء والارادة الصلبة. وكان يمكن القول ساعة اعلان الحرب ان حظه كبير وشبه اكيد في التمكن من تسديد ضربة موجعة لايران، واستعادة ما خُسر.

لكن كل القوى المتنافرة والمتصارعة والمتجابهة في ايران تضافرت ضد صدام حسين. فبالرغم من التفكك الذي حلّ به، فقد ظل الجيش الايراني متواجداً، ولديه كميات ضخمة من الأسلحة، وترسانة هائلة من المعدات التقليدية قوامها عشرات آلاف الألغام والقنابل والمتفجرات المخزنة منذ عهد الشاه. ناهيك بأن عدد الايرانيين يبلغ ثلاثة اضعاف سكان العراق.

والأهم من ذلك ان الثورة الاسلامية كانت على الصعيد العاطفي بمثابة تعبئة للحرب والتضحية، فمنذ اعلان الحرب هبّت الجماهير الايرانية الى التطوع. ولوحظت صفوف الشباب الطويلة امام مكاتب التجنيد منذ الأيام الأولى وقبل ان تفتح مكاتب التطوع ابوابها رسمياً. لقد كانت الحرب فرصة لم يكن يحلم بها الخميني لاعادة الامساك بزمام الأمور، اذ كانت متدهورة. فبعد اولى ايام الثورة ونشوئها، بدأت البلاد تفتقر الى المواد الغذائية. اما تجربة المجالس والسوق السوداء فقد ادت الى فوضى اجتماعية واقتصادية لا توصف. وقد حمّل حراس الثورة مسؤولية ذلك للمعارضين ولكنهم اضطروا الى مسايرة المترددين. الكيل طافح والحرب هي الفرصة المؤاتية، الفرصة التي لا مثيل لها لجمع كل الناس تحت راية الجهاد.

وحتى منتصف العام ١٩٨١ حقق العراقيون سلسلة من الانتصارات ولكنهم بدأوا يتراجعون تحت وطأة الموجات البشرية العارمة التي اطلقتها طهران ضدهم. فمئتا الف عراقي كانوا يحاربون ضد مليوني ايراني.

لم تكن للايرانيين اسلحة جوية جاهزة لكنهم يملكون الكثير من الأسلحة الرشاشة والمدافع. فبدأت الهجمات الايرانية تصد العراقيين شيئاً فشيئاً. في تموز (يوليو) ١٩٨٢ كان هجوم رمضان، وفي تشرين الأول (اوكتوبر) كان هجوم مسلم بن عقيل، وتلاه في تشرين الثاني (نوفمبر) هجوم محرم. وقد أسفرت هذه الهجمات عن مجازر حقيقية في الجانب الايراني لأن الموجات البشرية التي اطلقها حراس الثورة لا تخضع لأي ستراتيجية. انها حروب القرون الوسطى وحروب التاريخ القديم. وبعدها جاء فجر الأول ثم الثاني، فالثالث، فالرابع. وما ان جاء شهر شباط (فبراير) ١٩٨٣ حتى كان العراقيون قد فقدوا كل الأراضي التي كانوا قد احتلوها. وأصبح الايرانيون يشددون عليهم الضغط في شط العرب. الجيش الايراني استطاع قلب الوضع لصالحه. ولكنه، مقابل ذلك، فقد مليون عنصر. واصبحت دوريات الدولة تطارد الشبان في المدن الكبرى وتنتزعهم من وسط اهلهم وذويهم لتقودهم الى الجبهة وتزج بهم في الحرب.

في آذار (مارس) من سنة ١٩٨٦، اصبح وضع العراق حرجاً. وقد اعترف رئيس اركان القوات البرية الايرانية سيد شيرازي بأن ايران دفعت ثمناً باهظاً لدخولها العراق. وفي بداية تلك السنة - التي جاءت ملائمة للايرانيين بسبب العواصف الرملية والأمطار التي كانت تحول دون تدخل فعال من جانب الطيران العراقي - شن الخميني احدى اكبر معارك التاريخ. فقد قامت آلاف الزوارق من مختلف الأنواع بانزال قوات، اكثريتها الساحقة من حراس الثورة، على الشاطىء العراقي غربي الفاو، بينما تسللت قوات اخرى في اهوار خرم شهر وسوزن جرد. وفي نفس الوقت اجتاز شط العرب اكثر من مئة الف رجل ودخلوا الأراضي العراقية باتجاه ام القصر. فانهالت سيول من القذائف والقنابل على عشرات بل مئات الكيلومترات المربعة.

القوات الايرانية الكثيرة العدد تمكنت من اجتياز وابل النار التي كانت تطلقها عليها المدفعية العراقية. وهذا ما كانت تخشاه القيادة العراقية. حتى ان ضباطاً عراقيين - بينهم العميد والعقيد - انتحروا خشية الوقوع في مذلة الأسر الذي كان يعده لهم الخميني.

الصحافة الدولية ذهبت الى حد القول بانهيار العراق. خطة هجوم الخميني - لأن آية الله هو الذي يقود الحرب - كانت تقضي بالالتفاف حول تحصينات شط العرب من ناحية الجنوب بمحاذاة حدود الكويت صعوداً الى المدن التي اقام فيها الخميني اثناء نفيه، ومنها كربلاء والنجف. ومن النجف كان الخميني ينوي السيطرة على بغداد.

تراجع العراقيون تحت وقع الصدمة. الطيران العراقي ظل بحكم المشلول بسبب رداءة الأحوال الجوية، بالاضافة الى طبيعة الأرض حول شط العرب التي كانت مملوءة بأقنية الري مما يحول دون استخدام دبابات ت٦٢ السوفياتية التي كانت بفعل ثقلها تغرق وتوحل في هذه المناطق الشاسعة من المستنقعات.

في نفس الوقت تقريباً، شن الخميني هجوماً على شمالي العراق باتجاه السليمانية ودفع بعشرات الفرق في هذه الموقعة التي كان يأمل ان تكون حاسمة،

بهدف الوصول الى كركوك، المركز البترولي العراقي الكبير الذي تنطلق منه خطوط النفط باتجاه تركيا. لكن المطر توقف عن الهطول وأنقشع وجه الفضاء فتمكن الجيش العراقي، من جديد، من استخدام الطيران. وبدأت اسراب الميراج تحلق من الفجر حتى الغروب وبدأ الوضع يتحسن لمصلحة العراق. اولاً في الكردستان حيث كانت الهجمات الايرانية تتحول الى جحيم قبل وصولها الى المواقع العراقية. وهكذا فقد شُل الهجوم الايراني وحصد القصف العراقي عشرات الآلاف من حراس الثورة الذين كانوا بمعظمهم من الفتيان والمراهقين. الذين ظلوا على قيد الحياة هرولوا الى الجبال القريبة بالرغم من ان بعضهم كان يشكو من جراح بليغة تنزف. وتحوّل هجوم الخميني الكثيف - الذي لم يدخر حتى العناصر البشرية - الى فشل ذريع.

اما في الجنوب حيث تمكّن الايرانيون من ترسيخ اقدامهم فقد اصطدم الهجوم العراقي المعاكس بالعديد من الصعوبات. وتمكن الجيش الذي يقوده الجنرال الفريق طعمه الجبوري من احتواء الصدمة الرئيسية للهجوم الايراني قبل وقف تقدم المهاجمين. بينما قامت قوات النخبة التابعة للفريق عبد الرشيد من مهاجمة الايرانيين انطلاقاً من شمالي الأهوار بارغامها على الانكفاء في منطقة جغرافية حيث يستحيل اقامة خطوط مواجهة.

شنت القوات العراقية هجوماً مضاداً ثالثاً على طول نهر الفرات، وفي هذه المنطقة تمكنت الدبابات السوفياتية ت٥٤ وت٦٢ من الاستيلاء على المواقع المعادية بعد أن سحقت في طريقها الآليات المجنزرة التي كان الايرانيون قد تمكنوا من نقلها بواسطة القوارب. واستعاد العراقيون الأراضي المحتلة شيئاً فشيئاً وشبراً شبراً بينما واصل الايرانيون نقل التعزيزات، الى جزيرة ام الرصاص خاصة، التي تمكن في ما بعد الفريق بريق من تحريرها، اثر معارك ضارية استعمل فيها السلاح الأبيض.

عندها، بدأ العراقيون يشقون الطرق لدباباتهم ونقلوا اطناناً من التراب والحجارة، فتمكنت المصفحات من العبور وتحقيق النصر. الا ان الرئيس صدام حسين ظل حذراً ولم يشأ المجازفة بأفضل قواته وخيرتها - فلم يدفع بها الى استعادة

شبه جزيرة الفاو مفضلاً الاحتفاظ بقواته وعدم تعريضها. لأن يخوض ضد الخميني على المدى الطويل معركة ابادة.

في مطلع السنة السابعة للحرب كان الوضع بالنسبة الى العراق على الشكل التالي: القوات العراقية ليست كافية من حيث عددها لأخذ المبادرة وإلحاق الهزيمة بايران. لكن تفوق القوات العراقية يشكل ورقة هامة في وجه الهجمات الايرانية التي لا تعتمد اي ستراتيجية. والعراق، اعتماداً منه على سلاح الدبابات الممتاز، وعلى الطيران الذي اثبت جدارته، اعتمد تكتيك شن العمليات المعاكسة وسحق حشود القوات المعادية. واذا كان العراقيون يعترفون بأنهم خسروا نصف مليون رجل فان خسارة عدوهم كانت ثلاثة اضعاف ذلك. ولا يمكن لحراس الثورة الاستمرار على هذه الوتيرة وقتاً طويلاً، لكنهم بدورهم بدأوا يتقنون فن القتال بعد ان استخلصوا العبر من اخطائهم السابقة. لقد اصبحوا يدركون انهم لن يستطيعوا طويلاً الاستمرار في دفع هذه الجزية الثقيلة بالرجال في سبيل السيطرة على مساحات صغيرة.

وهكذا، في مطلع العام ١٩٨٧، عندما هاجم الايرانيون من جديد، اعتمدوا التمويه اذ شغلوا الفيلق العراقي الثالث بقيادة الفريق خليل الدوري بمعارك جانبية فأجبروه على البقاء امام البصرة. ثم احدثوا ثغرة في منطقة كوشك وبحيرة الأسماك ـ وكانت بداية هجوم كربلاء، الهجوم الكبير الذي شاءت ايران ان يكون حاسماً ويحقق للإمام الخميني النصر. كان الهدف الاستيلاء على البصرة، المدينة الصناعية الكبرى، التي يعني سقوطها انهيار العراق وخسارته الحرب.

اصبح العراق امام تهديد بالغ الخطورة وخاصة بعد أن بدأت طائرات الفانتوم تظهر في سماء المعركة التي كان حكراً على طائرات الميراج والميغ العراقية. فالايرانيون اصبحوا الآن، بالاضافة الى الأعداد البشرية الضخمة التي يزجون بها في المعركة، يملكون الوسائل الجوية والصواريخ المضادة للطائرات وسواها. البصرة ظلت تقاوم، ولم تسقط. لكن التوازن في المعدات العسكرية الذي كان يميل نوعاً ما لصالح العراق بدأ يميل لمصلحة القوات الايرانية. فلا بد من الاشارة

هنا الى ان الاميركيين كانوا عندئذ قد زودوا طهران بقطع غيار لطائرات الفانتوم وبترسانة كاملة من المضادات الجوية.

***

القضية باتت معروفة من الجميع فهناك لجنة تحقيق نيابية وأسماء امثال: روبرت ماكفرلين، الاميرال بويندكستر، اوليفر نورث، تيري وايت، دونالد ريغن وحتى الرئيس الاميركي نفسه. انها مسألة مساومة للافراج عن القس ويرد، والأب جنكو، ودافيس جاكوبسن مقابل تزويد ايران بأسلحة يستخدم ريعها لمساعدة المعارضة المسلحة في النيكاراغوا، الكونتراس. هي مسألة عويصة، واهية الخيوط، هدفها ارضاء الرأي العام الاميركي وتحقيق كسب واضح للحزب الجمهوري مع اقتراب حملة الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة. هذا، بالاضافة الى المقولة الجوفاء حول توازن القوى والاعداد لمرحلة ما بعد الخميني. انها لعبة ملتوية كانت نتيجتها الأكثر بروزاً الحد من مصداقية رونالد ريغان واعطاء الخميني حظاً في كسب الحرب. ففي العام ١٩٧٧، عندما رأى الشاه ان مؤامرة تحاك ضده في اميركا، وان واشنطن تستعد للتضحية به ارضاءً لليسار الدولي، أسرّ الى مسعودي بأن الاميركيين لا يتورعون عن القيام بأي عمل مهما كان سيئاً. وكان الشاه على حق. فاننا عندما نحاول تقويم المساومة الذي سعى اليها الاميركيون نصعق اذ نراهم قايضوا بدلاً بخساً مقابل احتمال انتصار الثورة الاسلامية. لأن هذا الانقلاب في الموقف الاميركي لم يفاجىء صدام حسين وقواته بقدر ما فاجأ حلفاء واشنطن في الخليج.

***

في مطلع ١٩٨٧، بينما كان العالم بأسره يعرب عن مخاوفه ازاء هزيمة العراق، كان الدكتور محمد المشاط سفير العراق في باريس يعرب عن تصميم ثابت قويم في مقابلة اجرتها معه اذاعة الشرق. يومها فسّر كثيرون كلام المشاط

واصفينه بالعمل الدعائي صادر عن سفير بلد يخوض حرباً. لكن العودة الى هذا الحديث بعد اشهر معدودة تبيّن ان العراق قاوم بحزم كل هجمات الخميني وفقاً لما توقعه السفير العراقي في باريس. ونفهم تفاؤ ل السفير المشاط اكثر فأكثر عندما نلاحظ التطورات التي ادّت الى ترجيح كفة الحرب لصالح بغداد. لا شك ان السفير العراقي كان يشعر بأن الكفة لن تميل بعد الآن نحو طهران بل نحو بغداد. ولاسيما بعد ان بدّلت بعض الدول العربية موقفها.

في حديثه اشار السفير المشاط الى ان الهجوم الايراني الأخير ـ الثالث والثلاثين منذ بداية الحرب ـ والذي استخدمت فيه وسائل خارقة، ٢٥٠ الف مقاتل من المشاة ناهيك بالمدفعية وسلاح الدبابات ـ كان قد حصل ابان التئام القمة الاسلامية. وكأنه يبغي هدفين: خرق خطوط الدفاع العراقي، وبالتالي التأثير بالمشاركين في اعمال القمة الاسلامية التي تغيّب عنها الايرانيون. غير ان طهران لم تحقق الهدفين اللذين كانت تصبو اليهما. فلا استطاعت اختراق الخطوط العراقية ولا تمكنت من توجيه ضربتها الدبلوماسية. ولاسيما ان عمليتها اثارت مخاوف الكويت بشأن حدوده. فالدول العربية التي لم تكترث ايران لها شعرت بأنها معنية فعلاً وأتت تصرفات طهران العدوانية تؤكد هذا الاحساس لديها.

الآن، تبدو تصريحات محمد المشاط ذات وقع اكبر طالما الهجوم الايراني فشل وطالما اصبحت عملية استعادة الأراضي العراقية نوعاً من حملة تنظيف وتطهير، في حين قدرت خسائر الايرانيين بعشرات آلاف القتلى.

صحيح ان ايران لا تأبه لهذا النوع من الخسائر، الخسائر البشرية، ولكن في الواقع سلاح لا يمكن تعويضه. وقد توقع السفير العراقي في باريس نضوب سلاح المشاة الايراني وتحققت في ما بعد توقعاته. لقد تحدثوا عن نزف بشري وهو في الواقع نزف للشعب الايراني.

وكما هي العادة في كل مؤتمر صحافي، تناول سفير العراق غير موضوع. فقد تطرّق الى التواطؤ الايراني الاسرائيلي وكشف تغييراً بدأ يحدث في مسلك بعض العواصم العربية التي كانت ما تزال تؤيد الخميني. (وسيبدو صواب كلام

السفير في مقررات مجلس الجامعة العربية وتوصياته بعد اشهر طويلة وبالتحديد في الثالث والعشرين من ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ يوم ادان المجلس في تونس التواطؤ العسكري الايراني الاسرائيلي). وأخيراً فان الضغوط التي يمارسها الاتحاد السوفياتي، الذي كانت علاقاته مع بغداد ممتازة، على طهران، تبيّن ان موسكو التي ترددت لوقت قصير بفعل تأثير الثورة الاسلامية، انضمت الى المعسكر العربي، علماً بأنها لم تتخلّ عن هذا المعسكر في وقت من الأوقات، وان كانت قد ابدت تجاهه بعض التراجع في سنة ١٩٨٥ تحت هاجس التفكير بالمستقبل.

وهكذا فان شبح انتصار الخمينية اصبح بعيداً والجيش العراقي المهيأ لخوض المعارك الدفاعية يكيل لجنود الخميني ضربات موجعة. ويمكن هنا الكلام عن حرب استنزاف. وفي مثل هذه الحرب، تزداد عزلة الخميني بينما الرئيس صدام حسين يلقى اكثر فأكثر التأييد العام. هذا ما اكده السفير العراقي في مطلع العام ١٩٨٧، وكلامه الذي بدا في حينه نوعاً من تكتيك استدعته الضرورة، اصبح الآن واقعاً اكيداً.

الخميني لن يربح الحرب. وهذا، اليوم، امر ملموس. اما الرئيس صدام حسين فليس له سوى هدف واحد، ألا وهو السلام. سلام عادل لا يستطيع الخميني القبول به لأنه يعني هزيمته. ولذلك فسيواصل دونما انقطاع الهجمات الانتحارية التي لا يمكن ان تؤدي الى شيء.

***

وعود الى فضيحة ايران غيت. ففي الواقع ليست عثرة أو هفوة من البيت الأبيض بقدر ما هي انتصار للوبي الصهيوني في واشنطن، هذا اللوبي الذي طالما اعتبر الدول العربية ـ وفي طليعتها العراق ـ العدو الأول الذي يجب تحطيمه مهما بلغ الثمن ـ.

فان تتعرض اميركا لخداع الخميني كما كان البربر يشنون عملياتهم اللصوصية في شواطىء المتوسط، لا يقض مضاجع خبراء السياسة الاسرائيلية.

وان يشكل انتصار الخميني بالنسبة الى اوروبا وأميركا هزيمة جديدة ـ كما الفيتنام ـ فهذا لا يهم انصار اللوبي الصهيوني ولا يعنيهم بشيء.

كانت الصفقة المعقودة بين واشنطن وطهران تتضمن: ٢٠٠٨ صواريخ «تاف» و١٥ صاروخ «هوك» وترسانة ضخمة من قطع الغيار للطائرات والأجهزة الالكترونية. وفي الواقع فان هذه الصفقة تدخل في اطار بيع الأسلحة التي اعدتها اسرائيل «للعناصر الايرانية الموالية للغرب». هذه هي المعلومات التي كشف عنها في واشنطن اميرام نير مستشار شيمون بيريز. وكان مفاوض اسرائيل في هذه الصفقة مانوشهر غوربانيار، احد التجار الايرانيين الذين اقاموا على الدوام افضل العلاقات مع السافاك، ويحظى بأفضل تقدير لدى الدبلوماسيين الايرانيين. حتى ان احد هؤلاء، مايكل ليدن، وصفه برجل الانسانية والصدق. لكن جريدة «تايمس» التي استندت الى مصادر اخرى، وصفت غوربانيار بالماكر المنافق. اما الوسيط الثاني يعقوب غارودي الملحق العسكري السابق في السفارة الاسرائيلية في طهران، فقد كان ايام الشاه يهتم بالصفقات الرامية الى تزويد ايران بالأسلحة. وقد كان اكثر من أي شخص آخر يعرف مدى حاجة السوق الايرانية الحيوية الى السلاح المصنع في اسرائيل. الوسيط الثالث هو رجل الأعمال المعروف عدنان خاشقجي. وهنا، يلعب دور المفاوض ودور المخطط الذي ينفذ سياسته الخاصة وأسلوبه. وهو الرجل الذي لا بد منه في كل الصفقات الصعبة في الشرقين الأدنى والأوسط. وهو نفسه الذي اتاح لدافيد كيمحي المدير العام السابق للخارجية الاسرائيلية مقابلة الشخصيات الايرانية المعنية بالصفقة، وبخاصة غوربانيار. اما بالنسبة الى الولايات المتحدة، فلا بد بالاضافة الى جون بونيدكاستر ومايكل ليدن والكولونيل اوليفر نورث، من القاء الضوء على دور المستشار دونالد ريغن الذي كان يغطي اتصالات الشخصيات المذكورة مع الاسرائيليين ايشوار وأميرام نير.

تبعات فضيحة ايران غيت تتعدى خط الجبهة على شط العرب، وكما الزلزال، فان صدى الفضيحة هز الشرق الأوسط والمغرب العربي. وبدلاً من ان يؤدي الى عزل العراق فان الخطأ الاميركي اثار تأييداً جديداً لبغداد في العالم.

ومن غير المستغرب ان نرى مصر تتخذ موقفاً ثابتاً الى جانب العراق عبر تصريحات وزير الدفاع المشير ابو غزالة. ولكن ماذا يستطاع القول من موقف دمشق؟ المتفق استراتيجيا مع اهداف اسرائيل وايران.

كل شيء يدعو الى الاعتقاد بأن التأثير السلبي الذي تمارسه اسرائيل والولايات المتحدة وهو التأثير عينه الذي أدّى الى الاطاحة بالشاه هو الآن ضد مصلحة الخميني. وجدير بالذكر ان الملك الحسن الثاني في المؤتمر الصحافي الذي عقده في ٧ من آب ١٩٨٦، اشار، مُحقاً، الى ان هدف الحرب العراقية الايرانية الأول هو اضعاف العرب اكثر فأكثر وجعل التفوق الاسرائيلي امراً حتماً. «ايران غيت» لم تكن قد ادركت حجمها الحالي عندما بدأ يرتسم ما يمكن ان نسميه الوعي العربي للأمور.

ان تلعب اسرائيل الورقة الايرانية أمر منطقي يسهل تفسيره، لأن كل ما يضعف العرب يشكل بالنسبة الى اسرائيل فرصة جديدة للتفوق، وحظاً آخر في الاستمرار. واسرائيل تعلم اكثر من سواها ان الثورة الاسلامية اذا ما امتدت الى دول اخرى في المشرق والمغرب ستؤدي الى نسف التضامن العربي بنزاعات اخوية. ولكن نتائج هذا المد للثورة الاسلامية تتسم بنظر واشنطن وباريس ولندن وبروكسيل بطابع ومفهوم آخرين. انها احتمال عودة حرب النفط وربما زعزعة نهائية للدول الفقيرة وللجماهير المعوزة التي ستنتفض او تلتهب كما يهب القش اليابس. اضف الى ذلك ان اكثر من نصف سكان المغرب العربي هم من الشباب الذين لم يجاوزوا العشرين عاماً. كل اسباب التفجير كامنة اذاً في الأوضاع الراهنة ولا حاجة لمزيد من التصوّر والخيال لرؤية النتائج المحتملة. فلبنان رازح تحت ازماته ومصائبه، والعراق «المهزوم» يصبح ولاية شيعية في جمهورية اسلامية كبيرة موسعة، وسورية ولبنان والأردن ام ان تذوب في الشيعة الجديدة ام تنقسم طوائف ضعيفة محققة بذلك حلم اسرائيل واستراتيجيتها. والانتفاضات ستحدث في تونس والرباط والجزائر وقسنطينة. ويصبح بامكان الخميني الضغط على اوروبا نفسها وعلى سياستها الخارجية، وفي مدنها. وآخر معقل اوروبي تجتاحه الموجة الأصولية سيكون روسيا. غير ان موسكو تستطيع التصدي لمد الخميني وفك

الطوق الذي يكاد يخنق اوروبا. ولكن ذلك يستوجب دفع فاتورة باهظة، عوّدنا السوفياتيون على فرضها، كما حدث في برلين وسواها. الاّ اذا اشركوا الدول العربية المعارضة للخميني في حلف، لا على غرار حلف بغداد انما على غرار حلف قابول. قد يرى البعض في هذا رغبات تشبه الأحلام. ولكن هؤلاء كانوا يرون ايضاً استحالة حدوث تغيير في توازن القوى، كالتغيير الذي تمثل بغزو افغانستان.

قد تكون الأشهر المقبلة حاسمة. اذا تمكن العراق من تعزيز جبهته كما تشير الدلائل، فهل تنتهي الحرب بهدنة؟ هذا امر مستبعد. وموقف طهران من قرار مجلس الأمن الدولي ٥٩٨ خير دليل على ذلك. وحده ذهاب الخميني يمكن ان يعيد خلط الأوراق. اما في ما يتعلق بالحد من توسيع رقعة النزاع وفرض السلام، فذلك مستحيل ما زال الخميني حياً. لأن المبرر الوحيد لنظامه، هو تحقيق انتصار على العراق. واذا لم يتحقق هذا الانتصار، فسيحكم التاريخ على الخميني بقساوة إذ يكون قد خلف وراءه صورة المبشر المرعب الذي لم يترك وراءه سوى الدمار والخراب والقبور.

***

هناك عدة مشاريع للسلام، ولعل اكثرها مصداقاً هو مشروع الجزائر الذي يقول بأن على العراق الاعتراف بأنه البادىء بالحرب وعلى هذا الأساس يقدم بعض التعويضات لايران، وبالمقابل توافق طهران على وقف النار وترضى باجراء مفاوضات مع الرئيس صدام حسين بدلاً من السعي الى الاطاحة به. هذا المشروع يمكن ان يكون مقبولاً ولكن العمل به مستحيل ما زال الخميني حياً. وكل الدلائل تشير الى اننا نتجه نحو توسيع رقعة النزاع. اولاً، لأن الوضع الذي كان صعباً بالنسبة الى العراق حتى زمان غير بعيد، بدأ يتحسن لصالحه، ولا سيما في جبهة البصرة، بسبب تفوق الطيران العراقي. وثانياً، لأن التلاشي بدأ يظهر في ايران ازاء النزف المستمر الذي لا تبرره سوى استراتيجية لا تأبه كثيراً بالخسائر

البشرية. ومن هنا، نفهم اصرار حراس الثورة على تحقيق انتصار بأسرع وقت ممكن. ثم ان مصر، التي لا احد يشك في قوتها العسكرية، وضعت طاقاتها الضخمة في تصرف صدام حسين. وهذا يشكل خطوة اولى نحو توسيع رقعة الصراع، لأن المساعدة العسكرية تؤدي غالباً الى المشاركة الفعلية في القتال.

رحيل الخميني سيغيّر حتماً وجه ايران، كما سيبدل مسار الحرب. واذا كان مستبعداً الآن ان تعود الملكية الى طهران عبر رضا بهلوي (الابن البكر للشاه). فهناك كلام كثير عن منتظري - مرشح المشايخ - وعن رفسنجاني رئيس المجلس، ولكن هذه تكهنات مرهونة باستمرار الثورة الاسلامية. وهذا الأمر غير مؤكد. فيمكن مثلاً ان تدخل ايران في دوامة من الاضطرابات شبيهة بما يمر به لبنان. وتوقف الحرب على الجبهة سيدفع رفاق السلاح الى حل المشكلة التي تطرحها مسألة خلافة الخميني. وقد لا يتم هذا الأمر بالتي هي احسن. وحتى لو توصل الاميرال مدني الذي يقال انه الرجل القوي وزعيم المستقبل، الى السلطة، فسيقوم عليه حراس الثورة ويشنون ضده معارك داخلية ومقاومة داخلية فظيعة، مرتعها الأرياف والمناطق الداخلية. والاتحاد السوفياتي، المتربص بالأمور، ستكون عنده الذرائع الكافية للتدخل في المنطقة بحجة احلال السلام وفرض النظام واعادة الازدهار، الأمر الذي يطول على الولايات المتحدة الاميركية.

***

لا ابغي هنا السعي الى محاكمة السياسة الاميركية. فقد تسنّى لي ان اعرف جون فوستر دالس عن كثب، وأن اتعرف الى الرئيس ريشارد نيكسون، الذي غالباً ما انتقدوه ظلماً. فاستطعت ان اتبين في سياسة واشنطن اتجاهاً محافظاً اكيداً، وهو ميل طبيعي الى الاعتراف بالأخلاق والقيم وإتّباعها. وهذا النهج جعل من الولايات المتحدة نموذجاً لنظام سياسي يحتذى به. ولكن لا بد من الاعتراف بأن هذا النموذج السامي بدأ يتراجع امام تلكؤ فظيع. فمنذ عقدين على الأقل، امست السياسة الاميركية امتداداً للأعمال والمشاريع الاقتصادية حيث الصفقات

تبيح كل التصرفات.

هذا النهج يجمع بين الرعونة العمياء والعمليات التي تسيء الى اصحابها في عيون شعوب اخرى طالما تعلقت بالقيم والأخلاق التي امست بالنسبة اليها تراثاً حقيقياً.

وفي وضع كالذي يتخبط فيه الشرق، كيف يمكن تفسير مواقف اميركا المتأرجحة، المتبدلة، ازاء الشاه وازاء العراق الذي كان من المفترض ان تجعل منه حربه مع ايران حليفاً طبيعياً لواشنطن؟ فبصرف النظر عن فضيحة ايران غيت، قامت المخابرات الاميركية (سي . آي . اي) بتقديم معلومات خاطئة للعراقيين، ابان معركة الفاو خاصة، مما كاد يجعل الهجوم العراقي كارثة على بغداد. فهل كانت المخابرات الاميركية تسعى الى تقديم النصر للخميني على طبق من فضة؟ الصحف الاميركية هي التي فضحت الأمر. وقد نشرت نيويورك تايمز في ١٩٨٧/١/١٢ معلومات تفيد بأن السي . آي . إي وعلى رأسها وليام كايسي اعطت العراقيين عمداً معلومات خاطئة ومغلوطة.

هناك تفسير معقول لذلك وهو اطالة الحرب في سبيل خدمة المصالح الاسرائيلية. ولكن ذلك يدل على جهل فادح للأصول الدبلوماسية، وعلى عدم تقدير شأن العالم العربي في السنوات المقبلة. والبيت الأبيض الذي خسر مراكز كثيرة في العالم العربي يسعى الآن الى كسبها واستعادتها بواسطة هذه السياسة الخاطئة. هذا التصرف ينم عن ضيق افق، وقصر نظر حقيقيين، وانه قد يدفع بالغرب الى الهاوية.

***

ليست الادارة الاميركية وحدها التي رضخت لارهاب الخميني. ففي اذار (مارس) ١٩٨٥، اختطف دبلوماسيان فرنسيان في لبنان هما مرسيل كارتون ومارسيل فونتين. وفي شهر ايار (مايو) من السنة عينها اختطف فرنسيان آخران هما

الباحث ميشال سوراه والصحافي جان بول كوفمان. وشاءت الحكومة الفرنسية التغاضي عن معرفة هوية الخاطفين. فلم يجرؤ احد على اتهام حزب الله المتصل جذرياً بطهران. وجرت مفاوضات هزيلة مع السيد نبيه بري زعيم حركة امل ورجل سوريا المعروف، الذي لم تكن لديه اي وسيلة ضغط على ايران للافراج عن الرهائن. وأفظع من ذلك ان الحكومة الفرنسية بايعاز من وزير الخارجية رولان دوماس خلطت بين قضية الرهائن وسياستها في الشرق الأوسط. فالخلاف الدبلوماسي مع ايران الناجم عن قضية ديون مشروع اوروديف تحوّل الى خلاف آخر هو مسألة المساعدة الفرنسية للعراق. ورضخ الفرنسيون للارهاب الايراني، وسمحت حكومة لوران فابيوس الاشتراكية لشركة «لوشير»، التي يمتلك اكثرية اسهمها رجل اعمال سوري يعمل بتحفظ شديد، بتسليم ايران قنابل من عيار ١٥٥. لكن ذلك لم يكف طهران. وما لبث ان اختطف فرنسي جديد هو موظف في مكتب الخطوط الجوية الفرنسية في العاصمة الايرانية. الحكومة الفرنسية عينت جاك مارتان سفيراً في ايران وكلفته بتطبيع العلاقات بين البلدين. لكن التنازلات لم تنفع بل انها رفعت حجم المزايدات. فمقابل الافراج عن الرهائن اصبحت طهران تطالب بأن يفرج عن الكوماندوس الذي حاول اغتيال شابور بختيار. وعيل صبر الفرنسيين. فقررت باريس وقف كل المفاوضات لأن التراجع المستمر كان يسيء الى مجرى الحملة الانتخابية النيابية. وقرر وزير الداخلية بيار جوكس في شباط (فبراير) ١٩٨٦ طرد عشرة ملتزمين ايرانيين وعراقيين اثنين. «امنيستي» الدولية المعروفة بميولها اليسارية اعلنت على الملأ ان البوليس العراقي اعدم احد المقاومين العراقيين لكن النبأ كان خاطئاً والتقى السفير الفرنسي في بغداد الرجلين حرّين معافيَين وقد عفا عنهما صدام حسين اثر عودتهما الى العراق. لكن الاشاعة ادت الى قتل جاك سوراه (٩ آذار)، وفي اليوم التالي، ارتهن اربعة صحافيين آخرين.

حكومة جاك شيراك تنوء اليوم تحت عبء التبعات السياسية التي خلفتها لها الحكومة السابقة. فالسيد شيراك يعمل بموجب رؤية صحيحة، ويواصل بفاعلية حقيقية سياسة الدعم للعراق. فهو صديق لهذه الدولة كما هو صديق لرئيسها

صدام حسين.

كل هذه التناقضات تدل على ان المسؤولين في ادارتي جيمي كارتر ورونالد ريغان وفي الحكومة الفرنسية الاشتراكية (السابقة) مصابون بضعف البصيرة. فهم ينظرون الى نظام الخميني كما لو كان نظاماً طبيعياً وعادياً. ولكن يكفي قراءة الصحف اليومية لمعرفة الفظائع التي تحصل في ايران.

لنذهب الى ابعد. الحرب بين العراق وايران اصبحت خطراً كبيراً على الصعيد العالمي، بفعل وجود الخميني على رأس الدولة الايرانية. فلو اندلعت الحرب ايام الشاه مثلاً، لأمست صراعاً تقليدياً كما في الماضي أو قل كما حرب فوكلاند-مالفيناس بين بريطانيا والأرجنتين. لكن الصراع العراقي الايراني اليوم شيء آخر. انه مواجهة ايديولوجية من شأنها تغيير مجرى التاريخ. فالشيعة طالما كانوا في التاريخ اقلية سياسية. ولاسيما في ايام الامبراطورية العثمانية. وقد أدّى بهم ذلك الى اللجوء لنوع من اصولية دينية ومن تصلب مذهبي. الصراع بين الشيعة والسنة اليوم يرجعنا الى عصور غابرة، ولّى زمانها.

في وجه هذا الصراع القديم يقدم مؤسس حزب البعث ميشال عفلق نظرية جديدة قوامها ان العرب لن يتقدموا الا باتكالهم على قوميتهم العربية دون سواها. عليهم اذاً ان يضعوا جانباً النظريات القديمة التي تمزج بين الدين والدولة. فنظام الخميني يرفض هذه النظرة الحديثة، ويحارب العرب، والمحدثين، بضراوة، لاجئاً الى العنف والارهاب. وهذا الصراع لا يستفيد منه في النهاية الا الاتحاد السوفياتي. على الغربيين ان يفهموا ذلك ويفكروا بالمصير الوخم الذي سينجم عن الصراع العراقي الايراني. فالثمن أو الرهان باهظ وخطير.

اضف الى ذلك المسألة اللبنانية. فيكفي ان يستتب الأمر للجهاد الاسلامي في لبنان حتى تنقلب الأوضاع رأساً على عقب وتحصل الزلزلة. لكن هناك عامل تفاؤل، وهو الموقف السوري؛ فالأسد الذي هو حليفاً حقيقياً لايران، فهم بالرغم من ذلك الخطر الناجم عن الحركات الأصولية عليه ووعى الخطر جيداً.

ويجب الاضافة الى ذلك ان الايمان وحده غير كافٍ لمنع المتطرفين السائرين في ركاب الخميني من الدخول في الدوامة الشيوعية. فالثوار يبدّلون نزعاتهم على هوى الأحداث. ويغيرون اتجاهاتهم مع التغيرات التي تحصل حولهم.

الثورة الاسلامية ارض خصبة لزرع كل الفتن. وبواسطتها ينتقل خطر الانفجار العالمي من محيط البلقان الى ضفاف دجلة والفرات ومياه الخليج.

***

المثل الذي يعطينا اياه القذافي ليس مختلفاً كثيراً عن مثل الخميني كما قد يظن البعض. فالعقيد معمر القذافي من كبار المتأثرين بشخصية جمال عبد الناصر منذ اطلالته على الحياة. وعلى غرار الرئيس اسس نواة ثورية اطاحت بسلالة السنوسيين. وفي ١٥ من ايلول (سبتمبر) **١٩٦٩** اسس الجمهورية الليبية وأرادها صورة عن الجمهورية العربية المتحدة.

في البدء، اذاً، وضع القذافي نفسه في اطار وطني عربي اسلامي معادٍ للامبريالية وذي تطلعات اشتراكية، كما البعث. لكن النظرية الماركسية اللينينة ما لبثت ان اجتذبته.

فالاسلام شبه مفقود في نهج العقيد السياسي. وقد حلّت مكانه الديالكتية البولشيفية (او الجدلية الماركسية) بشكل سافر كما نتبينه في الكتاب الأخضر الذي وضعه الزعيم الليبي.

قد يدّعون ان الواقع الليبي شيء وان الثورة الاسلامية شيء آخر. ولكن، لا ننسَ ان الثورة الاسلامية بدأت هي ايضاً بفرض ادارة نوع من مجالس سوفيات. فالمجلس، وتشرف عليه هيئة عليا، يمثل نوعاً من ادارة ومن تنظيم للحياة الاجتماعية، غايتها ديمقراطية ورؤياها المساواة. انه يعطي نفسه سلطة تشريعية وقضائية. بل انه يصادر، ويوزّع، ويقوم بمهام البوليس، ويطبق القوانين الثورية.

والأهم هو عقلية سائدة تذكّر بالتجارب الثورية ذات المشرب الماركسي.
وفي هذه الأحوال، يصعب الكلام عن الخميني والادعاء انه جبهة في وجه المد الشيوعي.

خاتمة

هناك تفسيرات عديدة حول اسباب سقوط الشاه. اما انا فقد توقعت الكارثة قبل ان تقع. فعندما قمت بجولة في بعض العواصم العربية سنة ١٩٧٧، شرعت اقول لمحادثيّ ان الشاه في وضع خطر وانه لن يستطيع استعادة سلطته وتقويم الأمور لمصلحته. لكني لمست ان كلامي لم يلقَ اذناً صاغية. فاجتمعت بعدئذ الى كبار المسؤولين وعرضت عليهم مخاوفي. فأصدقائي كثيرون في المملكة العربية السعودية وفي الكويت وفي مصر ايضاً، ورأيت واجباً علي اعلامهم بأن السفينة لا بد غارقة. لكن الكارثة التي اراها وشيكة لم تبدُ لديهم هم محتمة. بعكس طهران حيث بدأ كثيرون يشعرون بهبوب العاصفة. فبدأت الرساميل تهرّب من البلاد ـ وهي بعشرات المليارات ـ مما زاد في تأزّم وضع اقتصادي لم تعد تكفي المداخيل النفطية لسترته.

الشاه عنيد ساهم في دفع العجلة التي اودت به.

تحدثنا عن الاميركيين وتحدثنا عن اسرائيل كما تحدثنا عن الأقليات في ايران. لكن هناك خطأ فادحاً ارتكبه الشاه نفسه عندما فرض «رستاكيز»، الحزب الواحد. مع ان الشاه، كما عرضنا سابقاً، لم يكن في صميمه مناوئاً لأسس الديمقراطية! وفي ايران احزاب مستعدة لاعادة فتح حوار معه. وهذه الأحزاب ذات اتجاهات صحيحة، يوثق بها، وتضم مثقفين وتجاراً وأصحاب مهن حرة. فهؤلاء لم يكونوا ينادون بالأصولية الدينية. لكن فرصتهم الأخيرة ضاعت مع

اعلان الحزب الواحد. وعندما اعلن الشاه في مؤتمر صحافي بقصر نيافاران حل جميع الأحزاب، وقع النبأ على الجميع كما الصاعقة. يومها، قلت لفرحات مسعودي ان الشاه انتهى وانه اطاح بعرشه. في الواقع، حل الأحزاب لم يبدل شيئاً كبيراً في الواقع السياسي، انما زاد عدد المستائين. الارهاب كان يومها مستفحلاً. ففي سنة ١٩٧١ حاول ارهابيون اختطاف الأميرة اشرف توأمة الشاه. وفي سنة ١٩٧٢ حاول معارضون اغتيال الشاه نفسه. كما استطاعوا اغتيال مدير البوليس. لكن الأحزاب التقدمية لم تكن متصلة بالارهاب وحلها زاد في عزلة الشاه. اظن ان هذه الأحزاب، لو ظلت موجودة، لاستطاعت تقديم فرصة لتخليص ما يمكن تخليصه على الصعيد السياسي. بل لعلها وقفت حاجزاً في وجه الثورة الاسلامية.

هذه الأفكار عرضتها في جريدتي «الإخاء» وهي الجريدة العربية الوحيدة في ايران. لكن الشاه رد بطريقة متعالية، جارحة: «من لا يعجبه قراري فليغادر ايران!». كنت اعلم منذ وقت طويل انني سأغادر ايران يوماً، تماماً كما سكان الأودية المحيطة ببركان يغادرون بيوتهم ساعة تطفح السيول الملتهبة. ولاسيما انني كنت اشعر منذ وقت طويل بزلزلة الأرض تحتنا.

***

تساءلت مراراً هل سقوط محمد رضا بهلوي، الامبراطور والشاهنشاه بات حتماً؟ في البدء لم اكن اصدق ذلك. وحتى الآن ما زال في نفسي نوع من ريبة. مسؤولية الشاه المباشرة في سقوط عرشه كبيرة دونما شك ولكن مسؤولية حلفائه اكبر بكثير. وتطبيقاً للمثل القائل ان «سقوط البقرة يزيد عدد القصابين والسلاخين»، فان الانتقادات بدأت توجه الى الشاه بعد سقوطه من كل جهة وصوب. انتقدوه مثلاً على الترف الذي كان يعيش فيه ولكن اليس هناك مئات بل آلاف الأشخاص في العالم يعيشون في ترف مشابه؟ ومعظمهم بطريقة سافرة وفي نوع من مباهاة؟

اذكر كيف انتقدت الصحف، والغربية منها خاصة، انفاق الأموال في حفلات التتويج. ولكن هل الأمر مستغرب في بلد كايران حيث التقاليد ترقى الى آلاف السنين؟ فاحتفالات تتويج الشاه استجابت الى نوع من نداء قديم، راسخ في التراث والنفوس. بل هي جزء من مقومات الدولة في امبراطورية قديمة. لكن موازنة الدولة لم تكن كافية لتغطية نفقات الشاه والجيش والسافاك. قبل الثورة الاسلامية كانت ايران احدى الدول المجهزة للاسعاف الصحي العام، بل الأكثر تجهيزاً لذلك في الشرق الأوسط. الضمانات الاجتماعية كانت كافية ومجانية. التعليم ـ وهو مبدئياً الزامي ـ شمل منذ العام ١٩٧٠ اقصى الأرياف. وكانت المساعدات الاجتماعية كما الصحية تقدّم للمعوزين بحيث تحد نوعاً ما من بؤسهم وفاقتهم.

ولكن من ذا الذي اودى بالشاه؟ بعد حديثنا عن اسرائيل وعن كارتر لا بد ان نعود الى دور الغرب عامة ولاسيما انه الحليف الأول للامبراطور والامبراطورية. فالشاه خسر اولاً معركة التحديث والتطوير وكان نصب عينيه نموذج اوحد، جناحاه العلم والمعرفة. لكنهما ميزتان قديمتان لم يعد يكترث بهما احد. فبعد الحرب العالمية الثانية حصلت الانفجارات الضخمة، فانجر الشرق ايضاً في موجة الانتفاضات والثورات الحديثة، طالباً دائماً المزيد منها. صحيح ان كل رؤساء الدول لا يسيرون دائماً في خطى مصطفى كمال او جمال عبد الناصر. ولكني عندما افكر في مصير الشاه بعد سقوطه ووفاته لا يسعني الا ان اقارن بينه وبينهما. ولعل خير مقارنة هي بينه وبين الجنرال فرانكو بالرغم من شخصيتهما المختلفتين. ففي اسبانيا وقفت الجماهير الى جانب فرانكو. ولم تحدث اي انتفاضة عنيفة أو ثورة حقيقية قبل تسلم الاشتراكيين الحكم. واذا شبهناه بفرانكو فان الشاه كان يرتع في وضع مريح. وربما لذلك اكتفى بادارة تطوّر بلاده دون البحث عن دعم الجماهير ودون انشاء نهج سياسي. وهنا كان الخطأ. فمَن ذا الذي يستطيع ان يحكم طويلاً دون تعبئة ـ ولو ضمنية ـ للرأي العام؟ لا شك ان هناك ايرانيين كثيرين يفتقدون الشاه اليوم ويأسفون لرحيله، ولكن لم يكن لديهم اي دافع للقتال في سبيله. هذا ما سبب بطريقة غير مباشرة سقوط الشاه ولكن

هناك تساؤلات عديدة لا بد من طرحها، وبخاصة في شأن الدور الاميركي وفي الغرب عامة، وهو بالنسبة الى الشاه الصديق والحليف والمثل الأعلى.

المثل الربي اثّر كثيراً في كبار المجددين اكانوا اتراكاً ام فُرساً أم عرباً. اتاتورك رأى في دول اوروبا خير مثال وخير معين لمساعدة شعبه على الخروج من بؤسه المزمن. ومثله رضا خان، والد الشاه، الذي اورث نجله مبادىء تفكيره، «ومحبة الآباء تتصل بالبنين». لذا، عاش الشاه في نوع من اعجاب بأميركا مستمر. ولاسيما انها اعادت اليه عرشه يوماً.

في الغرب، غالباً ما ينتقل القرار السياسي من مركزه الأصيل، الى مراكز اخرى مضاربة له، بل معاكسة احياناً وهي الصحافة والاذاعة والتلفزيون. الشاه بدأ يخسر عرشه مع فضيحة واترغييت. وبعد ذلك استمر التدهور بفضل موجات الاذاعة والتلفزيون ووسائل الاعلام جميعاً في فرنسا وأوروبا عامة. فالقنابل التي يفجرها الصحافيون امضى، وأعنف بكثير، وأكثر فتكاً من العبوات الناسفة التي يدسها الارهابيون في الأماكن العامة. الغرب، لم يعد اذاً يملك السلطة الكافية لفرض سيادة وطن او امة. وهو يدور في حلقة مفرغة اسمها التطور التقني والاستهلاك. لقد خسر نفسه. ولولا ذلك لبذل ما في وسعه لمنع الخميني من اسقاط الشاه. لكنه، بالعكس، ساعد الثورة.

الأمثولة التي حفظها الشرق من الغرب - وقوامها الأخطاء والهفوات - كانت لمصلحة الاتحاد السوفياتي. مع ان الدول العربية، والخليجية منها بشكلٍ خاص، بعيدة كل البعد عن الاتحاد السوفياتي. فالعراق مثلاً ما كان ليصبح يوماً نوعاً من كوبا اخرى، بل بالعكس، فالبعث الممسك بزمام الأمور، يحارب الشيوعيين بقساوة كما كانت الحال ايام الشاه. ولكن، اليست موسكو التي تمد النظام العراقي بالسلاح والعتاد اللذين يحتاج اليهما. صحيح ان فرنسا كانت ذات بعد نظر، وحكيمة، ووفت بتعهداتها ازاء بغداد، ولكن بأي تأرجح. اما وفاء موسكو، الظاهر، فلا بد ان يحمل الدول المجاورة للعراق على المقارنة بينها وبين واشنطن.

غياب الغرب فتح للسوفياتيين ابواب الشرق وبمساعدتهم استطاع العراق ان يصمد وأن لا يخسر الحرب ان لم يربحها تماماً. فموسكو خلّصت اليمن ايضاً. لكن المقابل الذي قد تطلبه سيكون قاضياً على مصالح الدول الأطلسية.

كلمة اخيرة، لا بد منها. لقد استطاع الغرب التغلب على صعوباته والنهوض من كبواته، ولكن الهفوة التي يعاني منها الآن كبيرة وخطيرة اذ انها تسيء الى قيمه الانسانية. فأوروبا تمثل بالنسبة الى العرب ما كانت تمثله روما بالنسبة الى العالم القديم. لذلك يرفضون التسليم باحتضارها.

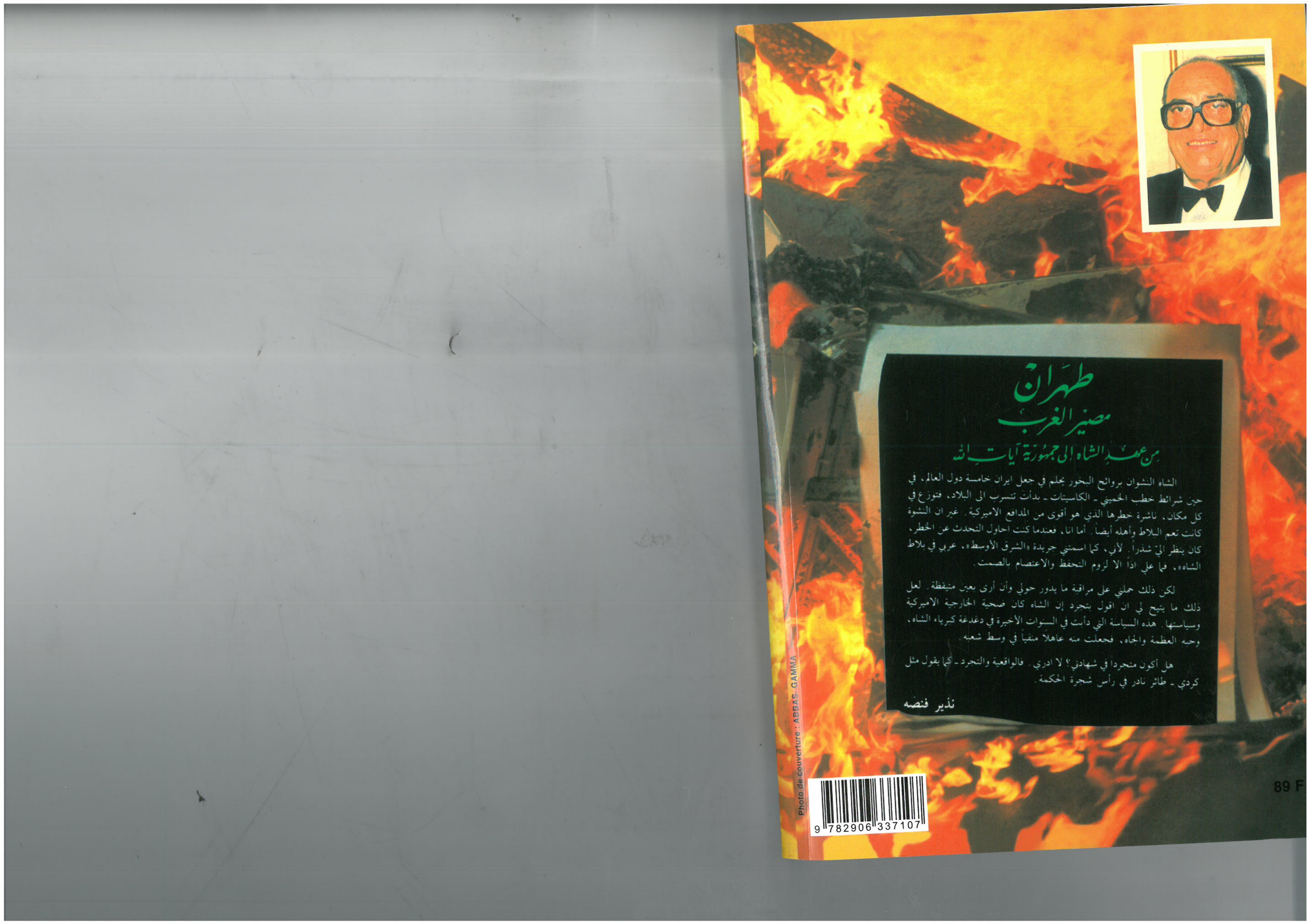
لعل الأمثولة الايرانية - النكسة الايرانية - تشكل انتفاضة وردة فعل في الغرب بالنسبة الى هذا الرأس الصغير في القارة الاسيوية، الذي ما زلنا به معجبين.

***

أمّا بعد،

«قال دمنة: حدَث امر، فمن ذا يغلب القدر، ومن يبلغ في الدنيا جسيماً فلم يبطر، أو إتّبع الهوى فلم يعثر، أو طلب الى اللئام فلم يُهَن ويُحرَم؟».

عبدالله بن المقفّع


طهران
مصير الغرب
من عهد الشاه إلى جمهورية آيات الله
الشاه النشوان بروائح البخور يحلم في جعل ايران خامسة دول العالم، في حين شرائط خطب الخميني - الكاسيتات - بدأت تتسرب الى البلاد، فتوزع في كل مكان، ناشرة خطرها الذي هو أقوى من المدافع الاميركية. غير ان النشوة كانت تعم البلاط وأهله أيضاً. أما انا، فعندما كنت احاول التحدث عن الخطر، كان ينظر اليّ شذراً. لأني، كما اسمتني جريدة «الشرق الأوسط»، عربي في بلاط الشاه». فما علي اذاً الا لزوم التحفظ والاعتصام بالصمت.
لكن ذلك حملني على مراقبة ما يدور حولي وأن أرى بعين متيقظة. لعل ذلك ما يتيح لي ان اقول بتجرد إن الشاه كان ضحية الخارجية الاميركية وسياستها. هذه السياسة التي دأبت في السنوات الأخيرة في دغدغة كبرياء الشاه، وحبه العظمة والجاه، فجعلت منه عاهلاً منفياً في وسط شعبه.
هل أكون متجرداً في شهادتي؟ لا ادري. فالواقعية والتجرد - كما يقول مثل كردي - طائر نادر في رأس شجرة الحكمة.
نذير فنصه
9 782906 337107
Photo de couverture : ABBAS - GAMMA
89 F